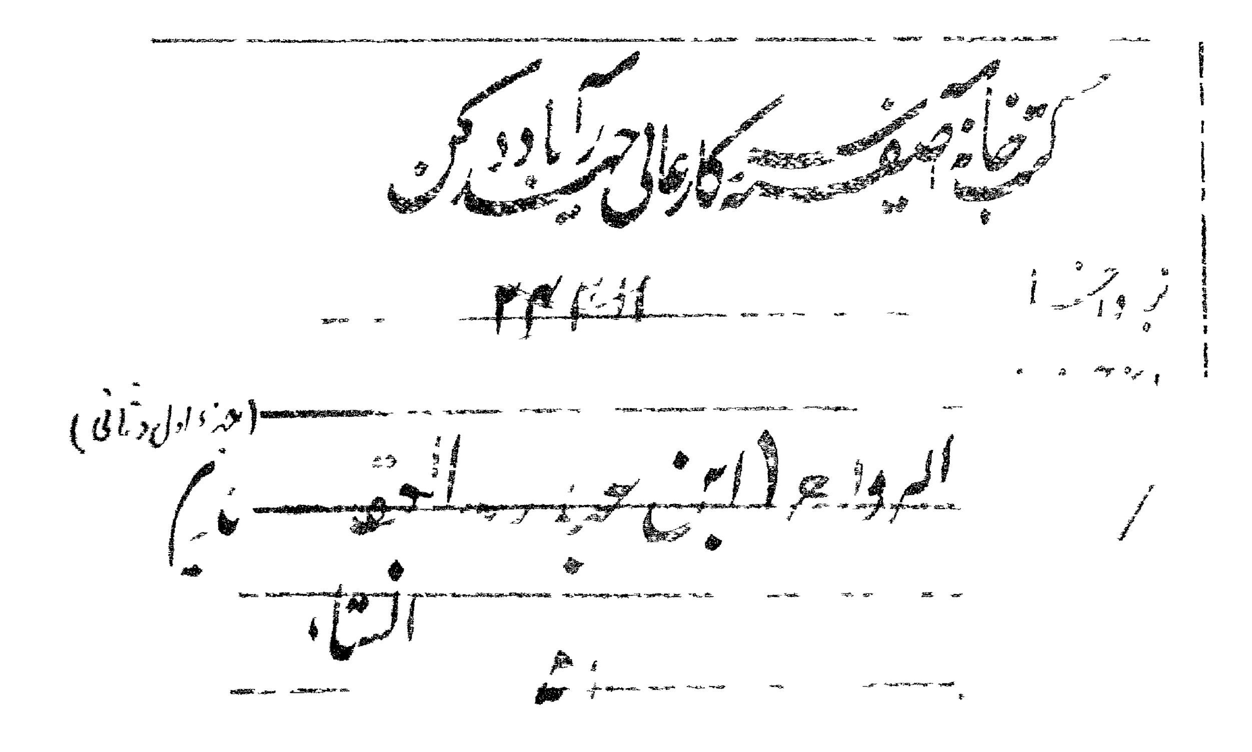


الرواع لابن عبد الحق (جزء اول و ثانی)

انشاء

فؤاد افرام البستاني (مرتب)

٤

ابن عبد ربه

العقد الفريد

درس ومنتخبات

بقلم

فؤاد افرام البستاني

استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

الجزء الاول

المطبعة الكاثوليكية

بيروت

ابن عبد ربه

٨٦٠ ـ ٩٤٠

كان انتشار السيطرة الاسلامية في البلاد الاعجمية من اخصب الاسباب نتيجة ، واوفرها عائدة على الآداب العربية ؛ بمعنى ان هذا الفتح السياسي دفع اهالي الاقاليم المختلفة الى درس اللغة العربية ، وهي امة الدين الجديد ، فاغنوا آدابها بذات افكارهم القيمة ، ومولدات مخيلاتهم الشائقة ، مما لم يحلم به ارباب هذه الآداب في اول نشأتها . وكان لاقليم الاندلس السبق في هذا المضمار ، فما اندفعت جيوش بني امية في سهوله ، حتى أسست الحواضر العامرة فيها المكاتب العديدة ، واخذ امراء ذلك الصقع بمنافسة خلفاء بغداد ادباً وعلماً وفناً ، فاضافوا الى المدنية الشرقية ذلك الفرع الاسباني الجميل . وكان في مقدمة العاملين لتأسيس هذه المدنية من يهمنا درسه اليوم ، الا وهو ابن عبد ربه :

الرجل

حياته

اسمه ـ نشأته

وهو احمد بن محمد بن عبد ربه بن حدير بن سالم ؛ ولد في

قرطبة في ٢٩ تشرين الثاني ٨٦٠ (١٠ رمضان ٢٤٦ هـ) وكان من موالي هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان من اموي الاندلس وامراء قرطبة . فنشأ في تلك المدينة ، ومال الى الادب من نثر ونظم فبرع فيهما ، واتقن الفقه والتاريخ ، ودرس بعض العلوم المعروفة في عصره من موسيقى وطب وغير ذلك .

آعماله — وفاته (٩٤٠)

لم يترك لنا مؤرخو ذاك العصر شيئاً يذكر عن اعمال ابن عبد ربه في حياته الطويلة . بل جلّ ما ذكر بعضهم انه مدح الامير محمداً ، والمنذر ، وعبد الله ، وعبد الرحمن الناصر . وقد ذكر هو في «عقده» شعراً كثيراً في هذا الامير الاخير . ولعله كان يرافقه في بعض غزواته او يلازم بلاطه . على ان اشغال مترجمنا ومآتيه في شبابه وكل حياته لا تزال طي الخفاء ، وقد لا تظهر .

اما فيما يختص بآخر حياته ، فنرى المؤرخ ابن خلكان يذكر ، وحده ، اصابة ابن عبد ربه بالفالج ، « قبل وفاته باعوام » وقد دقق غيره من المؤرخين في سني كاتبنا ، فرأوا انه عاش احدى وثمانين سنة وثمانية اشهر وثمانية ايام . وكانت وفاته في ١٨ جمادى الاولى ٣٢٨ هـ . (٣ اذار ٩٤٠)
وروى له الضبي ستة ابيات ذكر انها آخر ما قال من الشعر ، وهي تشكو طول عمره ، وبلاياه في آخر حياته . قال :

بليت ، وابلتني الليالي وكرُّها ، ودرفان للأيام معتوران

وما لي لا ابكي لسبعين حجةً ، وعشر ، اتت من بعدها سنتان ؟

فلا تسألاني عن تباريح علتي ، ودونكما سنيّ الـذي تريان .
واني، بحمد الله، راجٍ افضاله ولي ، من ضمان الله ، خير ضمان
ولست ابالي عن تباريح علتي اذا من عقلي باقياً ولساني ،
هما هما في كل حال تلمّ بي: هما صارمي فيها ، وذاك سناني !

اخلاقه وصفاته

كان ابن عبد ربه في شبابه والقسم الاكبر من حياته ، من الظرفاء الادباء يلذّ له الطرب ، ويستهويه السرور ، فيتتبع طرق اللهو ، ويدفع قريحته الى طرق ابواب الغزل الرقيق ، والتشبيب اللطيف ، حتى انه اتى في شعره بمعاني جديدة ، واساليب مبتكرة ، ومقاطع متناسقة بلغت غاية الغايات من هذا النوع من الشعر ، فعدّ من اشهر شعراء عصره . وانا نرى في كتابه الشواهد العديدة على هـذا الميل ، اذ لا يدع فرصة للحطّ من الغلوّ في الدين والتشنيع بالافراط في الزهد ، الا اغتنمها ؛ ولا يترك باباً للتوفيق بين اللهو والدين الا ولجه . ومما يذكر من حبّه للغناء انه كان لا يطرق اذنه صوت الّا وقف يتنعم بسماعه . وقد روى الوزير الفتح بن خاقان ، عن ابي محمد بن حزم ، ان ابن عبد ربه مرّ بقصر من قصور قرطبة ، لبعض الوزراء ، فسمع منه غناء اذهب لبه ، وطيّب قلبه ؛ فوقف . فبينا هو واقف تحت القصر، اذ رُشّ بماء من عاليه . فاستدعى رقعة وكتب الى صاحب القصر بهذه القطعة :

امـا اسم الكتاب فالشائع انه « العقد الفريد » وهو ما ورد في مقدمته . على ان المستشرق الالمـاني بروكلمان (Brockelmann) نبه الافكار الى ان المؤلف دعى كتابه «بالعقد» فقط ؛ فيكون «الفريد» نعتاً اضيف اليه تقديرًا لفوائده الجمّة . ونرى هذا القول صائباً لان مترجمي المؤلف الاقدمين كالفتح بن خاقان ، وياقوت ، وابن خلكان ، يذكرون الكتاب باسم «العقد» فقط . اما نحن فقد تركنا للمؤلف اسمه التقليدي جرياً على العادة المتبعة ، ولئلا نحرم هذا الكتاب النفيس من النعت الذي يستحقه .

وقد قسم الكاتب مؤلفه هذا الى ٢٥ كتاباً ، وذكر تفصيل ذلك في المقدمة (١ فحافظنا في منتخباتنا هذه على تقسيمه ؛ ولم نزد الا بعض العناوين الصغيرة ، اوردناها بجسم ١٤

طبعاته — ترجمة بعض اقسامه

طبع كتاب العقـد الفريد لاول مرة في بولاق سنة ١٢٩٣ هـ . (١٨٧٦) ثم تكررت طبعاته في القاهرة سنة ١٣٠٣ هـ (١٨٨٥) و١٣٠٥ هـ . (١٨٨٧) و١٣١٧ هـ . (١٨٩٩) و١٣٢١ هـ . (١٣٠٣) ولكن جميع هذه الطبعات قليلة الوضوح ، ناقصة الترتيب ، فضـلًا عن الاغلاط المطبعية ، وبعض التصحيف والتحريف .

وكان الافرنج قد سبقوا ادباء العصر الى معرفة العقد الفريد ، فنقل منه المستشرق الفرنساوي تورنيل (Tournel) الى لغته بعض المقـاطع

---

١) انظر المنتخبات (ص : ٤)

المختصة باحوال قدماء العرب، ونشرها في باريس بعنوان: « Lettres sur l'Histoire des Arabes avant l'Islamisme » سنة ١٨٣٦ و١٨٣٧ و ١٨٣٨ . ولكن المستشرقين لم يطبعوا النصّ العربي .

قيمة الكتاب

ان اجماع الادباء على نعت الكتاب «بالفريد» اكبر برهان على نفاسته ومنزلته السامية في المجموعات الادبية . فهو من هذا القبيل اقدم المصادر للفوائد الادبية واخبار الشعراء ، وحوادثهم وما يتبعها من النوادر والغرائب ، مع اخبار الخلفاء والملوك ، ومراسلاتهم . ولكن بعض الادباء انتقد على ابن عبد ربه انه صرف كل همه في ذكر الحوادث الشرقية دون انتباه الى امور بلاده ، وذلك ما حمل الصاحب ابن عباد ، وهو من اكبر ادباء العصر العباسي الثالث ، على القول ، اذ اطّلع على العقد الفريد بعد ان طلبه طويلًا : « هذه بضاعتنا رُدت الينا ! ظننت ان هذا الكتاب يشتمل على شيء من اخبار بلادهم . وانما هو مشتمل على اخبار بلادنا . لا حاجة لنا فيه ، فردَّه . » (١

ومهما يكن من الامر فان الكتاب قيمة كبيرة من حيث المعلومات الادبية التي اشتمل عليها ، وان يكن ناقصاً من جهة التاريخ . وهو ، لولا الاغاني الكبير ، لكان افضل سفرٍ من نوعه !

---

١) ياقوت : ارشاد الاراء — الجزء الثاني ص : ٦٧

شخصية ابن عبد ربه الادبية

ابن عبد ربه رجل اديب !

واذا ما ذكرنا «الاديب» عنينا ذاك الانسان الخفيف الروح ، الآخذ من جميع علوم عصره ، المطّلع على احوال زمانــه ، المُلمّ بفنون بلاده ، الذي يلاطفك محادثاً ، ويُسرك كاتباً ، ويبسطك شاعراً ، ويستفزّك مازحاً ؛ وقد لا يكون في كل ما يقوله فكرٌ عميق ، او شعور رقيق ، او خيــال واسع ، ولكن هي صفة خاصة ، وموهبة سامية ، وصبغة شخصية ، تفرز صاحبها عن مجموع الكتاب والشعراء ، فتخصه بلقب «الاديب»

عرفت آدابنا في العصر العباسي عدداً غير قليل من هؤلاء «الادباء» ، تركوا في مؤلفاتهم روحاً حيّة لطيفة ، كانت افضل سلاح لنــا لطرد ما تبعثه فينا من الضجر تصانيف اللغويين المملّة ، ومجاميع العلماء الجــافة . ولعل اشهر هؤلاء القوم ثلاثة تعــاقبوا ، واحداً في كل عصر من العصور العباسية الاولى ، فكان الجــاحظ رافع لوائهم في العصر الاول ، ثم تلاه ابن عبد ربه في بلاد الاندلس ، وكان الثالث ابا الفرج الاصبهاني صاحب الاغاني الكبير .

ولا يأخذنّ القارئ الوهم ان هؤلاء الادباء في مــنزلة واحدة ! لا بل هناك درجات تميّز الواحد عن الآخر . ولم نكن لنجمعهم الّا لاخذهم في مجرى واحد ، من طرق التفكير والانشاء ، وهو ما حددناه «بالادب» . فان

ابن عبد ربه يقصر عن ايجاز الاصبهاني ولكنه يفوقه وضوحاً. وهو ابعد من ان يدرك فكاهة الجاحظ واسترسال انشائه ولكنه يسمو عليه بترتيب افكاره، وحسن انتقالاته. فيكون والحالة هذه، اوفر من زميليه علماً وتعقلاً، وهما اكثر منه تفنناً و«ادباً»

واني لاعتقد ان هذا التعقل اكتسبه ابن عبد ربه على اثر اشتغاله بالعلوم الفقهية اشتغالاً اثّر في شخصيته الادبية، وجعل للعقل عنده التقدم على باقي القوى النفسية. واصدق برهان على ذلك ملازمته الوسط في كل ما يُثيره من المناظرات في كتابه كبحثه في الغلوّ في التديّن، وذكره لتحريم الخمرة وتحليلها... فانت اذا رأيته اندفع، بسليقته الادبية، يتوسّع في موضوع ما، شاهدته يبتدئ ابتداءً جاحظياً راخياً لقلمه عنانه، فاتحاً لقريحته كل ما تطرقه من الابواب، فلا تكاد تُسرّ بهذا الاندفاع حتى ترى عقل المؤلف عاد الى سيطرته، فقطع عليه السيل، مؤذناً بوجوب الانتقال الى موضوع آخر. وانت، اذا أُخذتَ بابياته الرقيقة، يفيض بها شعوره اثر موت ولده الصغير فيسمعك مثل قوله:

واكبدا! قد تقطعت كبدي! قد حرقتها لواعج الكمدِ!

...

يا رحمة الله، جاوري جدثاً دفنت فيه حشاشتي بيدي
ونوّري ظلمة القبور على من لم يصل ظلمه الى احدِ!

أسفت لانهزام هذا الشعور، امام العقل المتعلّم الذي يفسد عليك لذتك، ويفسد على الشاعر شعره بتعداد ما حفظه من اسماء المشاهير، فيقول: (في الموضوع نفسه، والضمير عائد الى الولد)

لم نُرْزَه ، لما رُزينا ، وحده ، وان استقلّ به المنون فريدا
لكن رُزينا القاسم بن محمدٍ في فضله ، والاسود بن يزيدا
وابن المبارك ، في الرقائق ، معمراً وابن المسيب ، في الحديث ، سعيدا
والاخفشين فصاحةً وبلاغةً والاعشيين رواية ونشيدا . . .

كذا ! فيتحوّل الشاعر الى مؤرخ ، والاب الحزين الى راوية يسرد اعلاماً . . .

واننا نتحقق الامر نفسه في ارجوزته القصصية الطويلة ، فبينا نؤمل خيراً بظهور اول شعر قصصي ، ونطمع بمفاخرة الغير بهذه الملحمة ، نرى املنا ميتاً وطمعنا خائباً ، ازاء خلوّ هذه المنظومة من تصاوير الخيال الفسيح ، ومولّدات الشعور القوي ؛ واذا بين ايدينا تاريخاً منظوماً لا ملحمة شعرية

. . .

فينتج مما تقدَّم ان ابن عبد ربه «اديب» ولكنه كثير العلم ، ولولا هذه الكثرة لكان اديباً ، وكاتباً ، وشاعراً . . .

مآخذ

ياقوت الحموي : ارشاد الاريب الى معرفة الاديب – طبعة Margoliouth – الجزء الثاني ١٩٠٩

الفتح بن خاقان : مطمح الانفس، ومسرح التأنس، في ملح اهل الاندلس طبعة القسطنطينية – ١٣٠٢ هـ. (١٨٨٤)

ابن خلكان : وفيات الاعيان، وانباء ابناء الزمان طبعة بولاق ١٢٩٩ هـ. (١٨٨١) – الجزء الاول

المقري : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب – طبعة بولاق ١٢٩٧هـ. (١٨٧٩) – الجزء الرابع (ينقل ما قاله الفتح بن خاقان)

الضبي : بغية الملتمس في تاريخ رجال اهل الاندلس – طبعة F. Codera – مجريط ١٨٨٤

ابن الفرضي : تاريخ علماء الاندلس – طبعة F. Codera – مجريط ١٨٩٠

ابو منصور الثعالبي : يتيمة الدهر في شعراء اهل العصر – طبعة دمشق – الجزء الاول

البستاني : دائرة المعارف – ابن عبد ربه

C. Brockelmann· Ibn ʿAbd Rabbihi – dans l'Encyclopedie de l'Islam.

العقد الفريد

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الاول بلا ابتداء، الآخر بلا انتهاء، المتفرد بقدرته، المتعالي في سلطانه . الذي لا تحويه الجهات، ولا تنعته الصفات، ولا تدركه العيون، ولا تبلغه الظنون؛ البادئ بالاحسان، العائد بالامتنان؛ الدالّ على بقائه بفناء خلقه، وعلى قدرته بعجز كل شيء سواه . المغتفر اساءة الذنب بعفوه، وجهل المسيء بحلمه؛ الذى جعل معرفته اضطرارًا، وعبادته اختيارًا . وخلق الخلق من بين ناطق معترف بوحدانيته، وصامت متخشع لربوبيته، لا يخرج شيء عن قدرته، ولا يعزب عن رؤيته؛ الذي قرن بالفضل رحمته، وبالعدل عذابه؛ والناس مدينون بين فضله وعذابه، آذنون بالزوال، آخذون في الانتقال، من دار بلاء، الى دار جزاء . احمده على حلمه بعد علمه، وعلى عفوه بعد قدرته، فانه رضي الحمد شكرًا لجزيل نعمائه، وجليل آلائه، وجعله مفتاح رحمته، وكفاء نعمته، وآخر دعوى اهل جنّته بقوله، جلّ

وعزّ: « وآخر دعواهم ان الحمد لله ربّ العالمين! » (١

وصلى الله على نبيّه الكريم، الشافع المقرّب، الذي بُعث آخرًا، واصطفي اولًا، وجعلنا من اهل طاعته، وعتقاء شفاعته.

بيان المقصد

وبعد. فان اهل كل طبقة، وجهابذة كل امة، قد تكلموا في الادب، وتفلسفوا في العلوم على كل لسان، ومع كل زمان. وان كل متكلم منهم قد استفرغ غايته، وبذل مجهوده، في اختصار بديع معاني المتقدمين، واختيار جواهر الفاظ السالفين. واكثروا في ذلك حتى احتاج المختصَر منها الى اختصار، والمتخيّر الى اختيار. ثم اني رأيت آخر كل طبقة، وواضعي كل حكمة، ومؤلفي كل ادب، اعذب الفاظًا، واسهل بنية، واحكم مذهبًا واوضح طريقة من الاول. لانه ناقض متعقب، والاول بادٍ متقدّم. فلينظر الناظر الى الاوضاع المحكمة، والكتب المترجمة، بعين انصاف، ثم يجعل عقله حكمًا عادلًا واطمأ، فعند ذلك يعلم انها شجرة باسقة الفرع، طيبة النبت، زكية التربة، يانعة الثمرة. فمن اخذ بنصيبه منها، كان على ارث من النبوّة، ومنهاج من الحكمة، لا يستوحش صاحبه، ولا يضلّ من تمسك به.

تأليف الكتاب — طريقة الكاتب

وقد الفت هذا الكتاب وتخيّرت جواهره من متخيّر جواهر الآداب ومحصول جوامع البيان؛ فكان جوهر الجوهر، ولُباب اللباب. وانما لي فيه تأليف الاختيار، وحسن الاختصار، وفرش لدور كل كتاب. وما

(١ القرآن: سورة يونس : ١١

سواه فمأخوذ من افواه العلماء ، ومأثور عن الحكماء والادباء . واختيار الكلام اصعب من تأليفه ؛ قال الشاعر :

قد عرفناك باختيارك اذ كا　　ن دليلاً على اللبيب اختياره

وقال افلاطون : « عقول الناس مدوّنة في اطراف اقلامهم ، وظاهرة في حسن اختيارهم . » فتطلبتُ نظائر الكلام ، واشكال المعاني ، وجواهر الحكم ، وضروب الادب ، ونوادر الامثال . ثم قرنت كل جنس منها الى جنسه ؛ فجعلته باباً على حدته ، ليستدلَّ الطالب للخبر على موضعه من الكتاب ، ونظيره من كل باب . وقصدت من جملة الاخبار ، وفنون الآثار ، الى اشرفها جوهراً ، واظهرها رونقاً ، والطفها معنىً ، واجزلها لفظاً ، واحسنها ديباجة ، واكثرها طلاوة وحلاوة . . . قال يحيي بن خالد : « الناس يكتبون احسن ما يسمعون ، ويحفظون احسن ما يكتبون ، ويتحدثون باحسن ما يحفظون . »

وحذفت الاسناد من اكثر الاخبار طلباً للاستخفاف والايجاز ، وهرباً من التثقيل والتطويل . . .

وقد نظرت في بعض الكتب الموضوعة فوجدتها غير متصرّفة في فنون الاخبار ، ولا جامعة لجمل الآثار ، فجعلت هذا الكتاب كافياً جامعاً لاكثر المعاني التي تجري على افواه العامّة والخاصة ، وتدور على السنة الملوك والسوقة ؛ وحلّيت كل كتاب منها بشواهد تجانس الاخبار في معانيها ، وتوافقها في مذاهبها ؛ وقرنت بها غرائب من شعري ليعلم الناظر في كتابنا هذا ، ان لمغربنا على قاصيته ، وبلدنا على انقطاعه ، حظاً من المنظوم والمنثور

اسم الكتاب – تقسيمه

وسميتهُ كتاب «العقد الفريد» (١ لما فيه من مختلف جواهر الكلام، مع دقة المسلك وحسن النظام. وجزّأته على خمسة وعشرين كتاباً، كل كتاب منها جزءان. فتلك خمسون جزءا في خمسة وعشرين كتاباً قد انفرد كل كتاب منها باسم جوهرة من جواهر العقد. فاولها .

١ – كتاب اللؤلؤة في السلطان
٢ – « الفريدة في الحروب , ومدار امرها
٣ – « الزبرجدة في الاجواد والاصفاد
٤ – « الجانة في الوفود
٥ – « المرجانة في مخاطبة الملوك
٦ – « الياقوتة في العلم والادب
٧ – « الجوهرة في الامثال
٨ – « الزمرّدة في المواعظ والزهد
٩ – « الدرّة في التعازي والمراثي
١٠ – « اليتيمة في النسب , وفضائل العرب
١١ – « العسجدة في كلام الاعراب
١٢ – « المجنَّبة في الاجوبة
١٣ – « الواسطة في الخطب
١٤ – « المجنَّبة الثانية في التوقيعات، والفصول، والصدور، واخبار الكتبة
١٥ – « العسجدة الثانية في الخلفاء، وتواريخهم ، وايامهم
١٦ – « اليتيمة الثانية في اخبار زياد ، والحجاج، والطالبيين ، والبرامكة

---

١) يقول المستشرق بروكلمان ان المولف سمّى كتابه «العقد» اما نعت «الفريد» فقد اضيف اليه بعد ذلك. انظر المقدمة (ص: و)

١
كتاب اللؤلؤة
في السلطان

السلطان زمام الامور ، ونظـام الحقوق ، وقوام الحدود ، والقطب الذي عليه مدار الدنيا . وهو حمى الله في بلاده ، وظله الممدود على عباده؛ به يمتنع حريمهم ، وينتصر مظلومهم ، وينقمع ظالمهم ، ويأمن خائفهم .

قالت الحكماء : « امام عادل ، خير من مطر وابل . وامام غشوم ، خير من فتنة تدوم . »

وقال عبد الله بن عمر : « اذا كان الامام عادلاً ، فله الأجر ، وعليك الشكر . واذا كان الامام جائراً ، فله الوزر ، وعليك الصبر »

وقال الافوه الاودي :

« لا يصلح الناس فوضى ، لا سراة لهم ولا سراة ، اذا جهالهم ـ سدوا . »

اختيار السلطان لاهل عمله

طلب رجل من النبي (صلعم) ان يستعمله ، فقال : « انا لا نستعمل على عملنا من يريده . »

لما قدم رجال الكوفة على عمر بن الخطاب يشكون سعد بن ابي وقاص، قال: «من يعذرني من اهل الكوفة؟ ان وليتهم التقي ضعّفوه، وان وليتهم القوي فجّروه.» فقال له المغيرة: «يا اميرَ المؤمنين، ان التقي الضعيف له تقواه، وعليك ضعفه؛ والقوي الفاجر لك قوته، وعليه فجوره!» قال. «صدقت. فانت القوي الفاجر، فاخرج اليهم.» فلم يزل عليهم ايام عمر، وصدر ايام عثمان، وايام معاوية، حتى مات المغيرة.

حسن السياسة، واقامة المملكة

قال معاوية: «اني لا اضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا اضع سوطي حيث يكفيني لساني؛ ولو ان بيني وبين الناس شعرة، ما انقطعت.» فقيل له: «وكيف ذلك؟» قال: «كنت اذا مدّوها ارخيتها، واذا ارخوها مددتها.»

قال المنصور لبعض قواده: «صدق الذي قال: اجع كلبك يتبعك، وسمّنه يأكلك» فقال له عباس الطوسي: «يا اميرَ المؤمنين، ان اجعته، يلوّح له غيرك برغيف فيتبعه ويدعك.»

بسط المعدلة، وردّ المظالم

حكم المأمون على ابنه

حدث الشيباني عن محمد بن زكريا، عن عباس المفضل الهاشمي في خطبة ابن حميد، قال:

اني لواقف على رأس المأمون يوماً، وقد جلس للمظالم؛ فكان آخر من تقدَّم اليه، وقد همَّ بالقيام، امرأة عليها هيئة السفر، وعليها ثياب رثة. فوقفت بين يديه، فقالت: «السلام عليك، يا اميرَ المؤمنين، ورحمة الله وبركاته.» فنظر المأمون الى يحيي بن اكثم؛ فقال لها يحيي: «وعليكِ السلام، يا امة الله، تكلمي في حاجتك» فقالت:

«يا خير منتصف، يُهدى له الرشدُ، ويا اماماً به قد اشرق البلدُ،
«تشكو اليك عميدَ القوم ارملةٌ عدا عليها، فلم يُترك لها سبدُ
«وابتزَّ مني ضياعي بعد منعتها ظلماً، وفُرِّق مني الاهل والولدُ»

فاطرق المأمون حيناً، ثم رفع رأسه، وهو يقول:

«في دون ما قلت، زال الصبر والجلدُ عني، واقرح مني القلب والكبدُ
«هذا اذان صلاة العصر، فانصرفي وأحضري الخصم في اليوم الذي اعدُ
«والمجلس السبت، إن يقضَ الجلوس لنا، ننصفك منه. والا المجلس الاحدُ.»

قال: فلما كان يوم الاحد، جلس فكان اول من تقدم اليه تلك المرأة. فقالت: «السلام عليك، يا اميرَ المؤمنين، ورحمة الله وبركاته» فقال: «وعليك السلام. اين الخصم؟» فقالت: «الواقف على رأسك، يا امير المؤمنين.» واومأت الى العباس ابنه. فقال: «يا احمد بن ابي خالد، خذ بيده فاجلسه معها مجلس الخصوم» فجعل كلامها يعلو كلام العباس. فقال لها احمد بن ابي خالد: «يا امة الله، انك بين يدي امير المؤمنين، وانك تكلمين الامير، فاخفضي من صوتك.» فقال المأمون: «دعها، يا احمد، فان الحق انطقها، واخرسه.»

ثم قضى لها بردّ ضيعتها اليها، وظلم العباس بظلمه لها. وامر بالكتاب لها الى العامل ببلدها ان يوغر لها ضيعتها (١) ويحسن معاونتها . وامر لها بنفقة .

. . .

قال معاوية: اني لاستحيي ان اظلم من لا يجد علي ناصراً الا الله"

صلاح الرعية بصلاح الامام

اطلع مروان بن الحكم على ضيعة له بالغوطة فانكر منها شيئاً؛ فقال لوكيله: « ويحك اني لاظنك تخونني ! » قال: « اتظن ذلك ولا تستيقنه ؟ » قال: « وتفعل ؟ » قال: « نعم ! والله اني لاخونك، وانك لتخون امير المؤمنين، وان امير المؤمنين ليخون الله . فلعن الله شر الثلاثة ! »

ما يأخذ به السلطان من الحزم والعزم

زار ابو سفيان معاوية، بالشام؛ فلما رجع من عنده، دخل على عمر. فقال: « أجزنا، ابا سفيان.» قال: «ما اصبنا شيئاً فنجيزك به» فاخذ عمر خاتمه، فبعث به الى هند وقال للرسول: « قل لها: يقول لك ابو سفيان: انظري الخرجين اللذين جئت بهما، فاحضريهما » فما لبث عمر ان أُتي بخرجين فيهما عشرة آلاف درهم، فطرحهما عمر في بيت المال فلما ولي عثمان، ردّهما عليه(٢ . فقال ابو سفيان: « ما كنت لآخذ مالًا عابه عليّ عمر ».

١) اوغر لها ضيعتها: جعلها لها من غير خراج

٢) اي علي ابي سفيان

التعرّض للسلطان، والردّ عليه

قال حبيب، وهو احسن ما قيل في السلطان:

هو السيل، ان واجهته، انقدت طوعه؛ وتقتاده، من جانبيه، فيتبعُ

. . .

قدم عقبة الازدي على معاوية، ودفع اليه رقعة فيها هذه الابيات:

معاويَ، اننا بشرٌ فاسجِحْ، فلسنا بالجبال ولا الحديد؛ (١

اكلتم ارضنا فجرَدتموها؛ فهل من قائمٍ او من حصيد؟

اتطمع بالخلود، اذا هلكنا، وليس لنا، ولا لك، من خلود!

فهبنا امة ذهبت ضياعاً يزيد امرها وابو يزيد!

فدعا به فقال: «ما جرّأك علي؟» قال: «نصحتك اذ غشوك، وصدقتك اذ كذبوك.» فقال: «ما اظنك الا صادقاً» وقضى حوائجه.

تحلّم السلطان على اهل الدين والفضل، اذا اجترأوا عليه

ابن طاووس والمنصور

حدث زياد عن مالك بن أنس قال: بعث ابو جعفر المنصور اليّ والى ابن طاووس، فاتيناه. فدخلنا عليه، فاذا هو جالس على فرش قد نضدت، وبين يديه نطاع قد بُسطت، وجلاوذة بايديهم السيوف يضربون الاعناق. فأومأ الينا: ان اجلسا. فجلسنا. فاطرق عنا قليلاً، ثم رفع رأسه

---

١) اسجح الوالي: احسن العفو

والتفت الى ابن طاووس، فقال له: « حدثني عن ابيك.» قال: « نعم، سمعت ابي يقول: قال رسول الله (صلعم): « ان اشدّ الناس عذاباً، يوم القيامة، رجل اشركه الله في حكمه فادخل عليه الجور في عدله.» فامسك ساعة. قال مالك: « فضممت ثيابي من ثيابه (١ مخافة ان يملأني دمه.»

ثم التفت اليه ابو جعفر فقال: « عظني يا ابن طاووس!» قال: « نعم، يا امير المؤمنين. الله تعالى يقول: «الم تر كيف فعل ربك بعاد، ارم ذات العماد، التي لم يُخلق مثلها في البلاد؛ وثمود الذين جابوا الصخر بالواد.» الى قوله: « ان ربك لبالمرصاد!»(٢ قال مالك: « فضممت ثيابي من ثيابه مخافة ان يملأ ثيابي دمه» فامسك ساعة حتى اسودّ ما بيننا.

ثم قال: « يا ابن طاووس، ناولني هذه الدواة.» فامسك عنه. ثم قال: « ناولني هذه الدواة.» فامسك عنه. فقال: «ما يمنعك ان تناولنيها؟» قال: « اخشى ان تكتب بها معصية، فاكون شريكك فيها » فلما سمع ذلك قال: قوما عني.» قال ابن طاووس: « ذلك ما كنا نبغي منذ اليوم.» قال مالك: « ما زلت اعرف لابن طاووس فضله.»

الحجاب

قال زياد لحاجبه: وليتك حجابتي، وعزلتك عن اربع: هذا المنادي الى الله في الصلاة والفلاح، لا تعرجنه عني، فلا سلطان لك عليه وطارق الليل لا تحجبه، فشرُّ ما جاء به؛ ولو كان خيراً، ما جاء به تلك الساعة.

---

١) اي من ثياب ابن طاووس

٢) القرآن: سورة الفجر (٦—١٥)

ورسول الثغر، فانه ان ابطأ ساعة فسد عمل سنة ، فادخله عليّ وان كنت في الخلاء . وصاحب الطعام، فان الطعام اذا أُعيد تسخينه فسد .

. . .

وقف ابو العتاهية الى باب بعض الهاشميين فطلب الاذن ، فقيل له : « تكون لك عودة » فقال :

لئن عدت ، بعد اليوم، اني لظالمٌ ! سأصرف وجهي حيث تبغى المكارمُ ؛
متى يظفر الغادي اليك بحاجةٍ، ونصفك محجوبٌ ونصفك نائمٌ ؟

الوفاء والغدر

قال مروان بن محمدّ (١ لعبد الحميد الكاتب ، حين ايقن بزوال ملكه : « قد احتجتَ الى ان تصير مع عدوي ، وتظهر الغدر لي . فان اعجابهم بادبك ، وحاجتهم الى كتابتك تدعوهم الى حسن الظن بك . فان استطعت ان تنفعني في حياتي ، والا لم تعجز عن نفع حرمي من بعد مماتي . » فقال عبد الحميد : « ان الذي امرت به انفع الاشياء لك ، واقبحها بي ؛ وما عندي غير الصبر معك حتى يفتح الله عليك ، او اقتل معك »

باب من احكام القضاة

قال عمر بن عبد العزيز : « اذا اتاك الخصم ، وقد فُقئت عينه ، فلا تحكم

---

١) مروان بن محمد : هو آخر خلفاء بني امية ، قُتل اثناء هربه من وجه السفّاح ، مؤسس دولة العباسيين سنة ٧٤٩ . وكان عبد الحميد كاتباً له شديد الاخلاص حتى قُتل معه

له حتى يأتي خصمه ، فلعلّه قد فُقئت عيناه جميعاً »

. . .

حكم شريح

دخل عدي بن ارطاة على شريح فقال : « اين انت ، اصلحك الله ؟ قال : « بينك وبين الجدار . » قال : « اني رجل من اهل الشام » قال « نائي المحل ، سحيق الدار . » قال : « قد تزوجت عندكم » قال : « بالرفاء والبنين ! » قال : « وولد لي غلام . » قال : « ليهنك الفارس ! » قال : « واردت ان ارحلها . » قال : « الرجل احقُّ باهله . » قال : « وشرطت لها دارها » قال « الشرط املك ! » قال : « فاحكم الآن بيننا . » قال : « قد فعلت . » قال « على من قضيت ؟ » قال : « على ابن امك . » قال : « بشهادة من ؟ » قال « بشهادة ابن اخت خالتك ! » يريد اقراره على نفسه .

٢

كتاب الفريدة

في الحروب ومدار امرها

فرش كتاب الحروب

قال احمد بن محمد بن عبد ربه: قد مضى قولنا في السلطان وتعظيمه، وما على الرعية من لزوم طاعته، وادامة نصيحته، وما على السلطان من العدل في رعيته، والرفق باهل مملكته. ونحن قائلون، بعون الله وتوفيقه، في الحروب ومدار امرها، وقود الجيوش وتدبيرها، وما على مدبرها من اعمال الخدعة، وارتهاد الفرصة، والتماس الغرة، واذكاء العيون، وافشاء الطلائع، واجتناب المضايق، والتحفظ من الدسيسات. هذا بعد معرفة أحكامها وإحكام معرفته، وطول تجربته، لمقاسات الحروب، ومعاناة الجيوش، وعلمه ان لا درع كالصبر، ولا حصن كاليقين. ثم نذكر كرم اليمن ومحمود عاقبته، ولؤم الفرار ومذموم مغبّته، والله المعين.

صفة الحروب

رحى ثقالها الصبر، وقطبها المكر، ومدارها الاجتهاد، وثقافها

الاناة ، وزمامها الحذر . ولكل شيء من هذه ثمرة : فثمرة المكر الظفر ، وثمرة الصبر التأييد ، وثمرة الاجتهاد التوفيق ، وثمرة الاناة اليمن ، وثمرة الحذر السلامة ؛ ولكل مقام مقال ، ولكل زمان رجال ، والحرب بين الناس سجال ، والرأي فيها ابلغ من القتال .

. . .

قال اكثم بن صيفي ، حكيم العرب : « لا حلم لمن لا سفيه له » .

ونحو هذا قول الاحنف بن قيس : « ما قلّ سفهاء قوم قط الا ذلّوا ! » وقال : « لان يطيعني سفهاء قومي احبُّ اليَّ من ان يطيعني حلماؤهم » وقال : « اكرموا سفهاءكم ، فانهم يكفونكم النار والعار » .

وقال النابغة الجعدي :

ولا خير في حلم ، اذا لم تكن له بوادرُ تحمي صفوه ان يكدّرا

الصبر والاقدام في الحروب

قالت الحكماء : « استقبال الموت خيرٌ من استدباره » .

وقال حسان بن ثابت :

ولسنا على الاعقاب ، تدمى كلومنا ولكن ، على اقدامنا ، تقطر الدما

وقال العلولي :

محرّمة اكفال خيلي ، على القنا ودمية لباتها ونحورها ؛
حرامٌ ، على ارماحنا ، طعن مدبرٍ وتندقّ منها ، في الصدور ، صدورها

وكانوا يتمادحون بالموت قطعاً ، ويتهاجون بالموت على الفراش ؛ ويقولون فيه : « مات فلان حتف انفه ! » قال السموأل :

وما مات منا سيدٌ حتف انفه، ولا طُلَّ منا، حيث كان، قتيلُ؛
تسيل، على حد الظباة، نفوسنا وليس، على غير الظباة، تسيلُ

وقال الشنفرى:

فلا تدفنوني؛ ان دفني محرمٌ عليكم؛ واكن خامري، أُم عامر (١
اذا حملت رأسي،وفي الرأس اكثري، وغودر، عند الملتقى ثمَّ، سائري
هنالك لا ابتغي حياةً تسرّني، سجيس الليالي، مبتلى بالجرائر

وقال علي بن ابي طالب (رضه) «بقية السيف انمى عدداً، واطيب ولداً.» (٢ يريد ان السيف اذا اسرع في اهل بيت كثر عددهم ونمى ولدهم. ومما يُستدل به على صدق قوله، ما عمل السيف في آل الزبير وآل ابي طالب، وما اكثر من عددهم.

قيل لعنترة: «كم كنتم يوم الفروق؟» قال: «كنا مائة كالذهب، لم نكثر فنتكل، ولم نقل فنذل».

وقد وصفنا الحرب بتشبيه عجيب لم يتقدَّم عليه، ومعنى بديع لا نظير له، فمن ذلك قولنا:

وجيشٍ كظهر اليمّ تنفحه الصبا يعبّ عباباً من قنا، وقنابلِ،
فيتزل اولاه؛ وليس بنازلٌ ويرحل اخراه، وليس براحلِ.
ومعتركٍ ضنكٍ تعاطت كماته كؤوس دماء، من كلى ومفاصلِ

---

١) وفي رواية: «ولكن اشري، ام عامر» وام عامر: لقب الضبع

٢) وفي النهج: «ابقى عدداً، واكثر ولداً» (اطلب المجلد الاول من «الروائع — علي بن ابي طالب— ص: ٥ عدد: ٣٥)

يديرونها راحاً من الراح بينهم ببيضٍ رقاقٍ،او بسمرٍ ذوابلِ،
وتسمعهم أُم المنيّة، وسطها، غناء صليل البيض، تحت المناصلِ

فرسان العرب في الجاهلية والاسلام

كان فـارس العرب في الجاهلية ربيعة بن مكدم من بني فراس بن غنم بن مالك بن كنانة. وكان يُعقر على قبره في الجاهلية؛ ولم يُعقر على قبر احد غيره.

ومن فرسان العرب في الجاهلية : عنترة الفوارس، وعتيبة بن الحرث ابن شهاب، وابو براء عمرو بن مالك، ملاعب الاسنّة، وزيد الخيـل، وبسطام بن قيس، والاحيمر السعدي، وعامر بن الطفيـل، وعمرو بن عبدود، وعمرو بن معدي كرب.

وفي الاسلام : عبد الله بن حازم السلمي، وعباد ابن الحصين، وعمير بن الحباب، وقطري بن الفجاءة (صاحب الازارقة) والحريش بن هلال السعدي، وشبيب الحروري.

المكيدة في الحرب

قال النبي (صلعم) : «الحرب خدعة!»

حيلة عمرو بن العاص.

قال ابن الكلبي : لما فتح عمرو بن العاص قيسارية، سار حتى نزل غزة؛ فبعث اليه علجها : ان ابعث اليَّ رجلاً من اصحابك اكلمه . ففكر عمرو وقال : «ما لهذا احد غيري!» (قال) : فخرج حتى دخل على العلج فكلمه،

فسمع كلاماً لم يسمع قط مثله . فقال العلج : « حدثني ، هل في اصحابك احد مثلك ؟ » قال : « لا تسأل عن هذا ؛ اني هيّن عليهم ، اذ بعثوا بي اليك وعرضوني لما عرضوني له ، ولا يدرون ما تصنع بي . » قال : فامر له بجائزة وكسوة . وبعث الى البواب : « اذا مرّ بك فاضرب عنقه ، وخذ ما معه . »

فخرج من عنده فمرّ برجل من نصارى غسان ، فعرفه ، فقال : « يا عمرو قد احسنت الدخول ، فاحسن الخروج . » ففطن عمرو لما اراده ، فرجع . فقال له الملك : « ما ردّك الينا ؟ » قال : « نظرت فيما اعطيتني ، فلم اجد ذلك يسع بني عمي ، فاردت ان آتيك بعشرة منهم تعطيهم هذه العطية ، فيكون معروفك عند عشرة خيراً من ان يكون عند واحد . » قال : « صدقت ، اعجل بهم . » وبعث الى البواب : ان خلِّ سبيله . فخرج عمرو ، وهو يلتفت ، حتى اذا امن قال : « لا عدت لمثلها ابداً » فلما صالحه عمرو ، ودخل عليه العلج قال له : « انت هو ؟ » قال : « نعم ، على ما كان من غدرك . »

الجبن والفرار

قال بعض العراقيين في رجل اكول ، جبان :

اذا صوّت العصفور ، طار فؤاده ؛ وليثٌ حديد الناب ، عند الثرائد

وقال الطرّماح يهجو بني تميم :

تميمٌ ، بطُرق اللؤم ، اهدى من القطا ولو سلكت سبل المكارم ، ضلّتِ

ولو ان برغوثاً ، على ظهر قملةٍ، رأتــه تميمٌ ، يوم زحفٍ ، لولت
ولو جمعت ، يوماً ، تميم جموعهــا علــى ذرةٍ معقولــة، لاستقلتِ

. . .

فر عمرو بن معدي كرب عن بني عبس ، وفيهم زهــير بن جذيمة العبسي وولداه شاس وقيس ، فقال فيهم :

اجاعــلة امَّ الثوير خزاية عليَّ فراري ، اذ لقيت بني عبسِ :
لقيت ابا شاس، وشاساً، ومالكاً، وقيساً ، فجاشت من لقائهم نفسي،
لقونا ، فضموا جانبينا بصادق من الطعن،مثل النار في الحطب اليبس؛
ولما دخلنا تحت ظل رماحهم ، خبطت بكفي،اطلب الارض باللمس .
وليس يُعاب المرء من جبن يومه، اذا عُرفت منه الشجاعة بالامس !

النزع بالقوس

الشيخ الرامي

حدث العتبي عن بعض اشياخه قال :

كنت عند المهاجر بن عبد الله، والي اليمامة ، فأُتي باعرابي كان معروفاً بالسَرَف (١ . فقال له : « اخبرني عن بعض عجائبك » . قال : « عجائبي كثيرة . ومن اعجبها انه كان لي بعير لا يُسبق، وكانت لي خيل لا تُلحق، فكنت اخرج فلا ارجع خائباً . فخرجت ، فاحترشت ضباً ؛ فعلقتــه على قتبي . ثم مررت بخباء ليس فيه الا عجوز ، فقلت : يجب ان يكون لهذه

---

١) السَرَف : تجاوز الحد ؛ القدر الكبير

رائحة من غنم وابل . فلما امسيت اذا بإبل ، واذا شيخ عظيم البطن ، شثن الكفين ، ومعه عبد اسود . فلما رآني رحّب بي ، ثم قام الى ناقة فاحتلبها وناولني العلبة ، فشربت ما يشرب الرجل . فتناول الباقي ، فضرب بها جبهته . ثم احتلب تسع اينق ، فشرب البانهنّ . ثم نحر حواراً فطبخه ، فاكلت شيئاً واكل الجميع ، حتى القى عظامه بيضاً . وجثا على كومة وتوسّدها . ثم غطّ غطيط البكر . فقلت : هذه والله الغنيمة ! ثم قمت الى فحل ابله ، فخطمته ، ثم قرنته ببعيري ، وصحت به ، فاتبعني ؛ واتبعته الابل إرْباً إرْباً في قطار ، فصارت خلفي كانها حبل ممدود . فمضيت ابادر ثنيّة بيني وبينها مسيرة ليلة للمسرع ، ولم ازل اضرب بعيري مرة بيدي ومرة برجلي حتى طلع الفجر . فابصرت الثنيّة ، واذا عليها سواد . فلما دنوت منه اذا الشيخ قاعد ، وقوسه في حجره . فقال : «أضيفنا ؟» قلت : «نعم !» قال : «استخر نفسك عن هذه الابل» قلت : «لا !» فاخرج سهماً كانه لسان كلب ، ثم قال : «انظره بين اذني الضبّ المعلّق في القتب .» ثم رماه ، فصدع عظمه عن دماغه . فقال لي : «ما تقول ؟» قلت : «انا على رأيي الاول .» قال : «انظر هذا السهم الثاني في فقرة ظهره الوسطى .» ثم رمى به ، فكانما قدره بيده . ثم قال : «رأيك ؟» فقلت : «اني احب ان استثبت» قال : «انظر هذا السهم الثالث في عكوة ذنبه . والرابع ، والله ، في بطنك .» ثم رماه فلم يخطِ العكوة . قلت : «أأنزلُ آمناً ؟» قال : «نعم !» فدفعت اليه خطام فحله وقلت : «هذه إبلك لم تذهب منها وبرة .» وانا انظر متى يرميني بسهم يقصد به قلبي . فلما تباعدت ، قال : «أقبل .» فاقبلت ، والله فرقاً من شرّه ، لا طمعاً في خيره . فقال : «ما احسبك

تجشمت الليلة ما تجشمت الّا من حاجة .» قلت :«نعم» قال :«فاقرن، من هذه الابل ، بعيرين، وامض لطيّتك . » (قال) قلت :« اما والله ، لا امضي حتى اخبرك عن نفسك . فلا، والله ، ما رأيت اعرابياً اشدّ ضرساً ، ولا اعدى رِجلًا ، ولا ارمى يـداً ، ولا اكرم عفوًا ، ولا اسخى نفساً منك .» فصرف وجهه عني حياء ، وقال :« خذ الابل برمتها مباركاً لك فيها !»

٣

كتاب الزبرجدة

في الاجواد والاصفاد

الترغيب في حسن الثناء واصطناع المعروف

قالوا: « الايام مزارع، فما زرعت فيها حصدته. »

ومن قولنا في هذا المعنى، وغيره من مكارم الاخلاق:

يا من تجلّد للزما ن، اما زمانك منك اجلدْ؟
سلّطْ نُهاكَ على هوا كَ، وعدِّ يومك ليس من غدْ؛
ان الحياة مزارع؛ فازرعْ بها ما شئت، تحصدْ
والناس لا يبقى سوى آثارهم، والعين تُفقدْ
او ما سمعت بمن مضى: هذا يُذَمُّ، وذاك يُحمدْ؟
المال، ان اصلحته، يصلح؛ وان افسدت، يفسدْ

العطية قبل السؤال

قال سعد بن العاص: « قبّح الله المعروف، ان لم يكن ابتدئ من غ
مسألة. »

وقال اكثم بن صيفي : « كل سؤال وان قلّ ، اكثر من كل نوال وان جلّ » .

وقال علي بن ابي طالب (رضه) لاصحابه : « من كانت له اليَّ منكم حاجة، فليرفعها في كتاب لاصون وجوهكم عن المسألة » .

وقال حبيب :

ذلّ السؤال شجاً، في الحلق، معترضُ — من دونه شَرَقٌ، من خلفه جرضُ
ما ماء كفك ، ان جادت وان بخلت، — من ماء وجهي، اذا افنيته، عوضُ
اني ، بأيسر ما ادنيت ، منبسط — كما ، بأيسر ما اقصيت ، منقبضُ

. . .

سأل معاوية صعصعة بن صوحان : « ما الجود ؟ » فقال : « التبرّع بالمال، والعطية قبل السؤال ! » .

استنجاز المواعد

من امثالهم في هذا : « انجز حرٌّ ما وعد ! » .

وكان يحيي بن خالد بن برمك لا يقضي حاجةً الا بوعد، ويقول : « من لم يبت على سرور الوعد، لم يجد للصنيعة طعماً » .

لطيف الاستمناح

حوار ابي دُلف

ذكروا ان جاراً لابي دُلف، ببغداد، لزمه كبير دين فادح، حتى احتاج الى بيع داره . فساوموه بها، فسألهم الفي دينـــار . فقالوا له : « ان دارك

تساوي خمسمائة.» قال: «وجواري من ابي دُلف بالف وخمسمائة.» فبلغ ابا دُلف، فامر بقضاء دينه، وقال له: «لا تبعْ دارك، ولا تنتقل من جوارنا.»

. . .

وقفت امرأة على قيس بن سعد بن عبادة، فقالت: «اشكو اليك قلة الجرذان.» قال: «ما احسن هذه الكناية! أملئوا بيتها خبزًا ولحماً وسمناً.»

المنصور وازهر السمّان

حدث ابراهيم بن احمد عن الشيباني، قال: كان ابو جعفر المنصور، ايام بني امية، اذا دخل دخل مستترًا. فكان يجلس في حلقة ازهر السمّان المحدّث. فلما افضت الخلافة اليه، قدم عليه ازهر، فرحب به وقال له: «ما حاجتك؟ يا ازهر» قال: داري متهدّمة؛ وعليّ اربعة آلاف درهم؛ واريد لو ان ابني محمد ابنى بعياله.» فوصله باثني عشر الفاً، وقال: «قد قضينا حاجتك يا ازهر؛ فلا تأتنا طالباً.» فاخذها وارتحل. فلما كان بعد سنة، اتاه. فلما رآه ابو جعفر، قال: «ما جاء بك يا ازهر؟» قال: «جئتك مسلماً.» قال: «انه يقع في خلد امير المؤمنين أنك جئت طالباً.» قال: «ما جئت الا مسلماً» قال: «قد امرنا لك باثني عشر الفاً. واذهب فلا تأتنا طالباً ولا مسلماً.» فاخذها ومضى. فلما كان بعد سنة، اتاه. فقال: «ما جاء بك يا ازهر؟» قال: «اتيت عائدًا.» قال: «إنه يقع في خلدي أنك جئت طالباً» قال: «ما جئت الا عائدًا» قال: «قد امرنا لك باثني عشر الفاً. واذهب فلا تأتنا طالباً، ولا مسلماً، ولا عائدًا.» فاخذها

وانصرف .فلما مضت السنة اقبل . فقال له : « ما جاء بك يا ازهر؟ » قال : « دعاء كنت اسمعك تدعو به ، يا امير المؤمنين ، جئت لاكتبه . » فضحك ابو جعفر وقال : « انه دعاء غير مستجاب ! وذلك اني قد دعوت الله به ان لا اراك ، فلم يستجب لي . وقد امرنا لك باثني عشر الفاً . وتعالَ متى شئت ، فقد اعيتني فيك الحيلة . »

ابراهيم الموصلي والرشيد

حدث الاصمعي قال : كنت عند الرشيد اذ دخل عليه ابراهيم الموصلي ، فانشده :

وآمرةٍ بالبخل قلت لها : « اقصري ! فليس ، الى ما تأمرين ، سبيلُ
فعالي فعالُ المكثرين ، تجمُّلاً ، ومالي ، كما قد تعلمين ، قليلُ
وكيف اخاف الفقر او أُحرَم الغنى ، ورأي امير المؤمنين جميلُ ؟ »

فقال : « لله ابيات تأتينا بها ! ما احسن اصولها ، وابين فصولها ، واقل فضولها ! يا غلام ، اعطه عشرين الفاً . » قال : « والله ، لا اخذت منها درهماً . » قال : « ولِمَ ؟ » قال : « لان كلامك ، يا امير المؤمنين ، خير من شعري . » قال : « اعطوه اربعين الفاً . »

قال الاصمعي : فعلمت ، والله ، انه اصيد لدراهم الملوك مني .

ابو دلامة والمهدي

حدث الشيباني قال : وُلد لابي دُلامة ابنة ، ليلاً ، فاوقد السراج وجعل يخيط خريطة من شقيق . فلما اصبح طواها بين اصابعه وغدا بها الى المهدي . فاستأذن عليه ، وكان لا يحجب عليه ، فانشده :

لو كان يقعد فوق الشمس ، من كرم ، قومٌ لقيل : « اقعدوا يا آلَ عباس ،
ثم ارتقوا من شعاع الشمس في درج ، الى السماء ؛ فانتم اكرم الناس ! »

قال له المهدي : « احسنت والله ، ابا دلامة ، فما الذي غدا بك الينا ؟ »
قال : « وُلدتْ لي جارية ، يا امير المؤمنين . » قال « فهل قلت فيها شعرًا ؟ »
قال : « نعم قلت :

فما ولدتكِ مريمُ ، ام عيسى ، ولم يكفلكِ لقمانُ الحكيمُ ،
ولكن قد تضمّك ام سوء الى لَبّاتها ، وابٌ لئيمٌ ! » (١)

(قال) فضحك المهدي وقال : « فما تريد ان اعينك به في تربيتها ،
ابا دُلامة ؟ » قال : « تملأ هذه ، يا امير المؤمنين » واشار اليه بالخريطة بين
اصبعيه . فقال المهدي : « وما عسى ان تحمل هذه ؟ » قال : « من لم يقنع
بالقليل ، لم يقنع بالكثير . » فامر ان تملأ مالاً ، فلما نُشرت اخذت عليهم
صحن الدار ، فدخل فيها اربعة آلاف درهم .

ابو دُلامة وابو دُلف

لقي ابو دلامة ابا دُلف في مصادٍ له ، وهو بالعراق ، فاخذ بعنان فرسه
وانشده :

اني حلفت : « لئن رأيتك سالماً بقرى العراق ، وانت ذو وَفْرِ ،
لتصلّينَّ على النبي محمدٍ ولتملأنَّ دراهماً حجري . »

فقال : « اما الصلاة على محمد فصلى الله عليه وسلّم . واما الدراهم فاذا

(١) اللبات : جمع اللبة : المنحَر ، اعلى الصدر

رجعنا، ان شاء الله تعالى.» قال له : «جعلت فداك ! لا تفرق بينهما .» فاستلفها ، وصُبت في حجره حتى اثقلته .

اجواد اهل الجاهلية

الذين انتهى اليهم الجود في الجاهلية ثلاثة نفر : حاتم بن عبد الله بن سعد الطائي ، وهرم بن سنان المرّي ، وكعب بن مامة الايادي. ولكن المضروب به المثل حاتم وحده

اجواد اهل الاسلام

واما اجواد اهل الاسلام فاحد عشر رجلًا في عصر واحد ، لم يكن قبلهم ولا بعدهم مثلهم . فاجواد الحجاز ثلاثة في عصر واحد : عبيد الله بن العباس ، وعبد الله بن جعفر ، وسعيد بن العاص . واجواد البصرة خمسة في عصر واحد، وهم : عبد الله بن عامر بن كريز ، وعبيد الله بن ابي بكرة مولى رسول الله (صلعم)، ومسلم بن زياد ، وعبيد الله بن معمر القرشي ثم التميمي ، وطلحة الطلحات وهو طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعي . واجواد اهل الكوفة ثلاثة في عصر واحد، وهم : عتاب بن ورقاء الرياحي، واسماء بن خارجة الفزاري ، وعكرمة بن ربعي الفياضي .

الطبقة الثانية من الاجواد

فمنهم الحكم بن حنطب ، ومعن بن زائدة ، وكان يقال فيه : « حدِّث عن البحر ولا حرج ، وحدِّث عن معن ولا حرج » ، ويزيد بن المهلّب ، ويزيد بن حاتم ، وابو دلف ، وخالد بن عبدالله القسري ، وعلي ابن حاتم .

٤

كتاب الجمانة

في الوفود

قال احمد بن محمد بن عبد ربه :

قــد مضى قولنا في الاجواد والاصفاد على مراتبهم ومنازهم، وما جروا عليه، وما ندبوا اليه من الاخلاق الجميلة، والافعال الجزيلة. ونحن قائلون، بعون الله وتوفيقه، في الوفود الذين وفدوا على النبي (صلعم) وعلى الخلفاء والملوك. فانها مقامات فضل، ومشاهد حفل، يُتخير لها الكلام، وتستهذب الالفاظ، وتستجزل المعاني. ولا بدّ الوافد عن قومه ان يكون عميدهم وزعيمهم الذي عن قوسه ينزعون، وعن رأيه يصدرون. فهو واحد يعدل قبيلة، ولسان يُعرب عن السنة. ومــا ظنّك بوافد قوم يتكلّم بين يدي النبي (صلعم) او خليفته، او بين يدي ملك جبّار، في رغبة او رهبة؟ فهو يوطّد لقومه مرّة، ويتحفّظ عن امامه اخرى؛ اتراه مدّخرًا نتيجة من نتائج الحكمة، او مستبقياً غريبــةً من غرائب الفطنة؟ ام تظن القوم قدّموه لفضل هذه الخطة الا وهو عندهم في غاية الحذلقة واللسانة، ومجمع الشعر والخطابة ؟

وفود العرب على كسرى

حدّث ابن القطامي عن الكلبي قال:

قدم النعمان بن المنذر على كسرى، وعنده وفود الروم والهند والصين. فذكروا من ملوكهم وبلادهم. فافتخر النعمان بالعرب، وفضّلهم على جميع الامم، لا يستثني فارس ولا غيرها.

فقال كسرى، واخذته عزّة الملك: «يا نعمان، لقد فكرت في امر العرب وغيرهم من الامم، ونظرت في حال من يقدم عليّ من وفود الامم، فوجدت الروم لها حظاً في اجتماع الفتها، وعظم سلطانها، وكثرة مدائنها، ووثيق بنيانها؛ وان لها ديناً يبين حلالها وحرامها، ويردّ سفيهها، ويقيم جاهلها. ورأيت الهند نحواً من ذلك في حكمتها وطبّها، مع كثرة انهار بلادها وثمارها، وعجيب صناعاتها وطيب اشجارها، ودقيق حسابها وكثرة عددها. وكذلك الصين في اجتماعها، وكثرة صناعات ايديها، وفروسيتها، وهمّتها في آلة الحرب وصناعة الحديد؛ وان لها ملكاً يجمعها. والترك والخزر، على ما بهم من سوء الحال في المعاش، وقلّة الريف والثمار والحصون وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس، لهم ملوك تضمّ قواصيهم، وتدبّر امرهم. ولم ارَ للعرب شيئاً من خصال الخير، في امر دين ولا دنيا، ولا حزم ولا قوة. ومع ان مما يدلّ على مهانتها وذلّها وصغر همّتها محلّتهم التي هم بها مع الوحوش النافرة والطير الحائرة، يقتلون اولادهم من الفاقة، ويأكل بعضهم بعضاً من الحاجة، قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها، ومشاربها، ولهوها ولذّاتها. فافضل طعام ظفر به ناعمهم لحوم الابل التي يعافها كثير من السباع لثقلها، وسوء طعمها، وخوف دائها. وان قرى

احدهم ضيفاً عدّها مكرُمة، وان أُطعم اكلة عدّها غنيمة، تنطق بذلك اشعارهم، وتفتخر بذلك رجالهم. مــا خلا هذه التنوخية التي أسّس جدّي اجتماعها، وشدّ مملكتها، ومنعها من عدوّها؛ فجرى لها ذلك الى يومنا هــذا. وان لها مع ذلك، آثاراً ولبوساً، وقرى وحصوناً، واموراً تشبه بعض امور الناس. (يعني اليمن). ثم لا اراكم تستكينون على ما بكم من الذلّة والقلّة والفاقة والبوءس، حتى تفتخروا وتريدوا ان تنزلوا فوق مراتب الناس.»

قــال النعمان: «اصلح الله الملك! حقٌّ لأُمّــة الملكُ منها ان يسمو فضلها، ويعظم خطبها، وتعلو درجتها. إلّا انّ عندي جواباً في كل ما نطق به الملك، في غير ردّ عليه ولا تكذيب له. فان أمّنني من غضبه، نطقت به» قال كسرى: «قل، فانت آمن.» قال النعمان:

«اما أُمّتك، ايها الملك، فليست تُنازع في الفضل لموضعها الذي هي به من عقولها واحلامها، وبسطة محلّها، وبحبوحة عزّها، وما اكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك. واما الامم التي ذكرت، فاي امة تقرنها بالعرب الا فضلتها؟» قال كسرى: «بماذا؟» قال النعمان:

«بعزّها ومنعتها، وحسن وجوهها، وبأسها، وسخائها، وحكمة السنتها، وشدّة عقولها، وانفتها، ووفائها:

«فامــا عزّها ومنعتها، فــانها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوّخوا البلاد، ووطّدوا الملك، وقادوا الجند، ولم يطمع فيهم[١] طامع، ولم ينلهم نائل. حصونهم ظهور خيلهم، ومهادهم الارض، وسقوفهم السماء، وجنّتهم

---

١) اي في العرب

السيوف ، وعدّتهم الصبر . اذ غيرها من الامم انما عزّها الحجارة والطين ، وجزائر البحور .

« واما حسن وجوهها والوانها، فقد يُعرف فضلهم في ذلك على غيرهم من الهند المنحرفة ، والصين المنحفة، والترك المشوّهة، والروم المقشّرة .

« واما انسابها واحسابها، فليست أُمة من الامم الا وقد جهلت آباءها واصولها، وكثيراً من اولها . حتى ان احدهم ليُسأل عمّن وراء ابيه دُنيا فلا ينسبه ولا يعرفه . وليس احد من العرب الا يسمي آباءه ابا فأبا؛ احاطوا بذلك احسابهم وحفظوا انسابهم . فلا يدخل رجل في غير قومه، ولا ينتسب الى غير نسبه، ولا يدّعي الى غير ابيه

« واما سخاؤها، فان ادناهم رجلًا تكون عنده البكرة والناب (١ عليها بلاغه في حموله، وشبعه وريّه، فيطرقه الطارق الذي يكتفي بالفلذة، ويجتزئ بالشربة ؛ فيعقرها له ، ويرضى ان يخرج عن دنياه فيما يُكسبه حسن الاحدوثة، وطيب الذكر .

« واما حكمة السنتهم، فان الله تعالى، اعطاهم في اشعارهم؛ ورونق كلامهم وحسنه، ووزنه وقوافيه، مع معرفتهم بالاشياء ، وضربهم للامثال، وابلاغهم للصفات، ما ليس لشيء من السنة الاجناس . ثم خيلهم افضل الخيل ؛ ونساؤهم اعفّ النساء ؛ ولباسهم افضل اللباس . ومعادنهم الذهب والفضة ؛ وحجارة جبالهم الجزع . ومطاياهم التي لا يبلغ على مثلها سَفر(٢)، ولا يقطع بمثلها بلد قفر .

---

١) البكرة : الفتيّة من الابل . الناب : الناقة المسنّة

٢) السَفر : المسافرون

« واما دينها وشريعتها ، فانهم متمسكون به حتى يبلغ احدهم من نسكه ان لهم أشهرًا حرماً ، وبلداً محرّماً ، وبيتاً محجوجاً ، ينسكون فيه مناسكهم ، ويذبحون فيه ذبائحهم . فيلقى الرجل قاتل ابيه او اخيه ، وهو قادرٌ على اخذ ثاره وادراك رغمه منه ، فيحجزه كرمه ويمنعه دينه عن تناوله باذى .

«واما وفاؤها ، فان احدهم يلحظ اللحظة ، ويومئ الايماء ، وهي وَلْث(١ وعقدة لا يحلّها الّا خروج نفسه . وان احدهم يرفع عوداً من الارض فيكون رهناً بدينه ، فلا يُغلق رهنه ولا تُخفر ذمته . وان احدهم ليبلغه ان رجلًا استجار به ، وعسى ان يكون نائياً عن داره فيُصاب ، فلا يرضى حتى يفني تلك القبيلة التي اصابته او تفنى قبيلته ، لما اخفر من جواره . وانه ليلجأ اليهم المجرم المُحدث ، من غير معرفة ولا قرابة ، فتكون انفسهم دون نفسه ، واموالهم دون ماله .

« واما قولك ، ايها الملك : يئدون اولادهم ؟ فانما يفعله من يفعله منهم بالاناث انفةً من العار ، وغيرة من الازواج .

« واما قولك : ان افضل طعامهم لحوم الابل ، على ما وصفت منها ؟ فما تركوا ما دونها الا احتقاراً له ؟ فعمدوا الى اجلّها وافضلها . فكانت مراكبهم وطعامهم ، مع انها اكثر البهائم شحوماً ، واطيبها لحوماً ، وارقّها البانًا ، واقلّها غائلة ، واحلاها مضغة . وانه لا شيء من اللحمان يُعالج ما يُعالج به لحمها الا استبان فضلها عليه .

« واما تحاربهم ، واكل بعضهم بعضاً ، وتركهم الانقياد لرجل

---

١) الوَلْث : العهد الغير الاكيد

يسوسهم ويجمعهم، فانما يفعل ذلك من يفعله من الامم ، اذا أنست من نفسها ضعفاً ، وتخوّفت نهوض عدوّها اليها بالزحف . وانه انما يكون في المملكة العظيمة ، اهل بيت واحد يُعرف فضلهم على سائر غيرهم ، فيلقون اليهم امورهم ، وينقادون لهم بازمتهم . واما العرب فان ذلك كثير فيهم ، حتى لقد حاولوا ان يكونوا ملوكاً اجمعين ، مع انفتهم من اداء الخراج ، والوطف (١ بالعسف .

« واما اليَمَن التي وصفها الملك ؛ فلما اتى جد الملك الذي اتاه ، عند غلبة الجيش له على ملكٍ متسق، وامرٍ مجتمع ؛ فاتاه مسلوباً طريداً مستصرخاً قد تقاصر عن ايوانه ، وصغر في عينه ما شيد من بنائه؛ ولولا ما وتر به من يليه من العرب، لمال الى مجال ، ولوجد من يجيد الطعان ويغضب للاحرار ، من غلبه العبيد الاشرار . »

(قال) فعجب كسرى لما اجابه النعمان به، وقال : « انك لاهل لموضعك من الرئاسة في اهل اقليمك ، ولما هو افضل . » ثم كساه من كسوته ، وسرّحه الى موضعه من الحيرة .

. . .

فلما قدم النعمان الحيرة ، وفي نفسه ما فيها ، مما سمع من كسرى من تنقّص العرب ، وتهجين امرهم ؛ بعث الى اكثم بن صيفي ، وحاجب بن زرارة التميميين ، والى الحرث بن ظالم وقيس بن مسعود البكريين، والى خالد بن جعفر، وعلقمة بن علاثة ، وعامر بن الطفيل العامريين ، والى عمرو بن الشريد السلمي ، وعمرو بن معدي كرب

---

١) الوطف : اي المبالغة

الزبيدي ، والحرث بن ظالم المرّي . فلما قدموا عليه في الخَوَرنق ، قال لهم :
« قد عرفتم هذه الاعاجم ، وقرب جوار العرب منها . وقد سمعتُ
من كسرى مقالات تخوّفت ان يكون لها غور ، او يكون انما اظهرها
لامرٍ اراد ان يتخذ بـه العرب خولاً كبعض طماطمته في تأديتهم الخراج
اليه ، كما يفعل بملوك الامم الذين حوله . » فاقتصّ عليهم مقالات كسرى ،
وما ردّ عليه .

فقالوا : « ايها الملك ، وفّقك الله ، ما احسن مـا رددتَ وابلغ ما
حججت به ! فمرنا بامرك ، وادعنا الى ما شئت . »

قال : « انما انا رجل منكم . وانمـا ملكت وعززت بمكانكم ،
وما يتخوّف من ناحيتكم . وليس شيء احبّ اليّ مما سدّد الله به امركم ،
واصلح به شأنكم ، وادام به عزّكم . والرأي ان تسيروا بجماعتكم ، ايها
الرهط ، وتنطلقوا الى كسرى . فاذا دخلتم ، نطق كل رجل منكم بما
حضره ، ليعلم انّ العرب على غير مـا ظنّ او حدثته نفسه . ولا ينطق
رجلٌ منكم بمـا يغضبه ، فانه ملك عظيم السلطان ، كثير الاعوان ،
مترَف معجب بنفسه ؛ ولا تنخذلوا له انخذال الخاضع الذليل . وليكن
امرٌ بين ذلك تظهر به وثاقة حلومكم ، وفضل منزلتكم ، وعظيم اخطاركم .
وليكن اول من يبدأ منكم بالكلام اكثم بن صيفي لسنّ حاله . ثم
تتابعوا على الامر من منازلكم التي وضعتكم بها ؛ فانما دعاني الى التقدمة
اليكم علمي بجميل كل رجل منكم على التقـدم قبل صاحبه . فلا
يكوننَّ ذلك منكم ، فيجد في آدابكم مطعناً ؛ فانه ملك مترف ، وقادر
مسلّط . »

ثم دعا لهم بما في خزائنه من طرائف حلل الملوك، لكل رجل منهم حلّة، وعمّه عمامة، وختّمه بياقوتة؛ وامر لكل رجل منهم بنجيبة مهرية وفرس نجيبة، وكتب معهم كتاباً: «اما بعد، فان الملك القى اليّ من العرب ما قد علم، واجبته بما قد فهم، بما احببت ان يكون منه على علم، ولا يتلجلج في نفسه ان امة من الامم التي احتجزت دونه بمملكتها، وحمت ما يليها بفضل قوتها، تبلغها في شيء من الامور التي يتعزّز بها ذوو الحزم والقوة والتدبير والمكيدة. وقد اوفدت، ايها الملك، رهطاً من العرب لهم فضل في احسابهم وانسابهم، وعقولهم وآدابهم؛ فليسمع الملك، وليغامض عن جفاء، ان ظهر من منطقهم، وليكرمني باكرامهم وتعجيل سراحهم. وقد نسبتهم في اسفل كتابي هذا الى عشائرهم.»

فخرج القوم في اهبتهم حتى وقفوا بباب كسرى، بالمدائن، فدفعوا اليه كتاب النعمان. فقرأه وامر بانزالهم الى ان يجلس لهم مجلساً يسمع منهم. فلما ان كان بعد ذلك بايام، امر مرازبته ووجوه اهل مملكته، فحضروا وجلسوا على كراسي عن يمينه وشماله. ثم دعا بهم على الولاء والمراتب التي وصفهم النعمان بها، في كتابه، واقام الترجمان يؤدي اليه كلامهم. ثم اذن لهم في الكلام

فتكلم كل رجل بما حضره، وكسرى يسمع فيقبل ما يعجبه، ويقوّم ما يراه معوّجاً، حتى انتهوا، فقال:

« قد فهمت ما نطقت به خطباؤكم، وتفنّن فيه متكلموكم. ولولا اني اعلم ان الادب لم يثقف أَوَدكم، ولم يحكم امركم، وانه ليس لكم ملك

يجمعكم فتنطقون عنده منطق الرعية الخاضعة الباخعة ، فنطقتم بما استولى على السنتكم ، وغلب على طباعكم ، لم أجزْ لكم كثيراً مما تكلمتم به . واني لأكره ان أجبه وفودي او أحنق صدورهم . والذي احب من اصلاح مدبركم ، وتألف شواذكم ، والاعذار الى الله فيما بيني وبينكم . وقد قبلت ما كان في منطقكم من صواب ، وصفحت عما كان فيه من خلل . فانصرفوا الى ملككم فأحسنوا مؤازرته ، والزموا طاعته ، واردعوا سفهاءكم ، واقيموا أوَدهم ، واحسنوا ادبهم ، فان في ذلك صلاح العامة . »

٥

كتاب المرجانة

في مخاطبة الملوك

تبجيل الملوك وتعظيمهم

قـال اصحاب معاوية لمعاوية: «انَّا ربما جلسنا عنـدك، فوق مقدار شهوتك؛ فنريد ان تجعل لنـا علامة نعرف بها ذلك.» فقال: «علامـة ذلك ان اقول: اذا شئتم!». وقيل ذلك ليزيد، فقال: «اذا قلت: على بركة الله!». وقيـل ذلك لعبد الملك بن مروان، فقـال: «اذا وضعت الخيزرانة.»

الشعبي والحجّاج

دخل الشعبي على الحجاج، فقال له: «كم عطاك؟» قال: «الفين». قال: «ويحك! كم عطاؤك؟» قال: «الفان». فقال: «فلمَ لحنت فيما لا يلحن فيه مثلك؟» قال: «لحن الامير فلحنت، وأعرب الامير فاعربت، ولم اكن ليلحن الامير فاعرب انا عليه، فأكون كالمقرّع له بلحنه، والمستطيل عليه بفضل القول قبله». فاعجبه ذلك منه، ووهبه مالاً.

قبلة اليد

حدث عبد الرحمن بن ابي ليلى، عن عبد الله بن عمر قال: كنا نقبّل يد النبي (صلعم).

ومن حديث وكيعٌ عن سفيان قال: قبّل ابو عبيدة يد عمر بن الخطاب.

حدّث الشيباني عن ابي الحسن، عن مصعب قال: رأيت رجلًا دخل على علي بن الحسين في المسجد فقبّل يده، ووضعها على عينيه، فلم ينهه.

مَن كره من الملوك تقبيل اليد

حدث العتبي قال: دخل رجل على هشام بن عبد الملك فقبّل يده فقال: « افّ له! ان العرب ما قبلت الايدي الا هلوعاً، ولا فعلته العجم الا خضوعاً».

واستأذن ابو دلامة الشاعرُ المهديَّ في تقبيل يده، فقال: « اما هذه فدعها. » قال: « ما منعت عيالي شيئاً ايسر فقداً عليهم من هذه! »

حسن التوقيع في مخاطبة الملوك

المنصور ومعن بن زائدة

دخل معن بن زائدة على ابي جعفر فقال له: « كبرتَ يا معن! » قال: « في طاعتك، يا امير المؤمنين! » قال: « وانك لتتجلّد! » قال: « على اعدائك، يا اميرَ المؤمنين! » قال: « وان فيك لبقيّة! » قال: « هي

لك ، يا اميرَ المؤمنين ! » قال : « اي الدولتين أحب اليك او ابغض ، دولتنا او دولة بني امية ؟ » قال : « ذلك اليكَ يا امير المؤمنين ، ان زاد برّك على برّهم ، كانت دولتك احب اليَّ . وان زاد برّهم على برّك ، كانت دولتهم احبّ اليَّ . » قال : « صدقت ! »

تذكير الملوك بذمام متقدّم

قال ثمامة بن أشرس للمأمون ، لما صارت اليه الخلافة : « كان لي املان : امل الك ، وامل بك ؛ فاما املي الك فقد بلغته ، واما املي بك فلا ادري ما يكون منك فيه ؟ » . قال : « يكون افضل ما رجوت واملت . » فجعله من سمّاره وخاصته .

فضيلة العفو والترغيب

كان للمأمون خادم ، وهو صاحب وضوئه ، فبينا هو يصبّ الماء على يديه ، اذ سقط الاناء من يده . فاغتاظ المأمون عليه . فقال : « يا اميرَ المؤمنين ، ان الله يقول : « والكاظمين الغيظ . . . » قال : « قد كظمت غيظي عنك ! » قال : « والعافين عن الناس . . . » قال : « قد عفوت عنك ! » قال : « والله يُحب المحسنين » قال : « اذهب فانت حرّ ! »

بُعد الهمة وشرف النفس

الفرزدق وسليمان بن عبد الملك

دخل الفرزدق على سليمان بن عبد الملك ، فقال له : « من انت ؟ »

وتجهّم له كانه لا يعرفه . فقال له الفرزدق : « وما تعرفني يا اميرَ المؤمنين؟» قال : « لا » قال : « انا من قوم منهم أوفى العرب ، وأسود العرب ، واحلم العرب ، وافرس العرب ، واشعر العرب ! » قال : «والله ، لتبيّنن ما قلت او لأوجعنَّ ظهرك ، ولاهدمنَّ دارك . » قال : « نعم ، يا اميرَ المؤمنين ، اما اوفى العرب فحاجب بن زرارة الذي رهن قوسه عن جميع العرب فوفى بها ؛ واما اسود العرب فقيس بن عاصم الذي وفد على رسول الله (صلعم) فبسط له رداءه وقال : « هذا سيّد الوَبَر ! » واما احلم العرب فعتاب بن ورقاء الرياحي ، واما افرس العرب فالحريش بن عبد الله السعدي ، واما اشعر العرب فها انادا بين يديك ، يا اميرَ المؤمنين . »

فاغتمّ سليمان مما سمع من فخره، ولم ينكره وقال : « ارجع على عقبيك فما لك عندنا شيء من خير » فرجع الفرزدق وقال :

اتيناك ، لا من حاجة عرضت لنا اليك ، ولا من قلة في مجاشع

مراسلة بين الملوك

بين قيصر ومعاوية

كتب قيصر الى معاوية : « أخبرني عمّن لا قبلة له ، وعمّن لا اب له ، وعمّن لا عشيرة له ، وعمّن سار به قبره . وعن ثلاثة اشياء لم تُخلق في رحم ، وعن شيء ، ونصف شيء ، ولا شيء . وابعث اليَّ في هذه القارورة ببذر كل شيء . » فبعث معاوية بالكتاب والقارورة الى ابن عباس، فقال : « اما من لا قبلة له فالكعبة ؛ واما من لا اب له فعيسى ؛ واما من لا عشيرة له فآدم ؛ واما من سار به قبره فيونس ؛ واما ثلاثة اشياء لم تخلق في رحم

فكبش ابراهيم ، وناقة ثمود ، وحية موسى . واما شيء فالرجل له عقل يعمل بعقله ؛ واما نصف شيء فالرجل ليس له عقل ويعمل برأي ذوي العقول ؛ واما لا شيء فالذي ليس له عقل يعمل بـه ، ولا يستعين بعقل غيره . » وملأ القارورة ماء وقال : « هذا بزر كل شيء . » فبعث به الى معاوية ، فبعث به معاوية الى قيصر . فلما وصل اليه الكتاب والقارورة قال : « ما خرج هذا الا من اهل بيت النبوّة . »

بين هرون الرشيد وملك الهند

بعث ملك الهند الى هرون الرشيد بسيوف قلعية ، وكلاب سيورية ، وثياب من ثياب الهند . فلما اتته الرسل بالهدية ، امر الاتراك فصُفّوا صفين ولبسوا الحديد حتى لا يُرى منهم الا الحدق ، واذن للرسل فدخلوا عليه . فقال لهم : « ما جئتم به ؟ » قالوا : « هذه اشرف كسوة بلدنا . » فامر هرون القطّـاع بان يقطع منها جِلالاً وبراذع كثيرة لخيله . فتصلّب (١) الرسل على وجوههم ، وتذمّموا ونكّسوا رؤوسهم . ثم قال لهم : « ما عندكم غير هذا ؟ » قالوا له : « هذه سيوف قلعية لا نظير لها . » فدعا هرون بالصمصامة ، سيف عمرو بن معدي كرب ، فقطعت السيوف بين يديه ، سيفاً سيفاً كما يقطع الفجل ، من غير ان تنثني له شفرة . ثم عرض عليهم حدَّ السيف فاذا لا فلَّ فيه . فتصلب القوم على وجوههم . ثم قال لهم : « ما عندكم غير هذا ؟ » قالوا : « هذه كلاب سيورية لا يلقاها سبع الا عقرته . » فقال لهم هرون : « فان عندي سبعاً ؛ فان عقرته ، فهي كما ذكرتم . » ثم امر بالاسد فأخرج اليهم . فلما نظروا اليه هالهم . وقالوا : « ليس عندنا مثل

(١) تصلّب صار صلباً

هذا السبع في بلدنا» قال لهم هرون: «هذه سباع بلدنا.» قالوا: «فنرسلها عليه.» وكانت الاكلب ثلاثة . فأرسلت عليه، فمزّقته . فاعجب بها هرون، وقال لهم: «تمنوا في هذه الكلاب ما شئتم من طرائف بلدنا.» قالوا: «ما نتمنّى الا السيف الذي قطعت به سيوفنا» قال لهم: «هذا مما لا يجوز في ديننا، ان نهاديكم بالسلاح. ولولا ذلك ما بخلنا به عليكم . ولكن تمنوا غير ذلك ما شئتم.» قالوا: «ما نتمنى الا به.» قال: «لا سبيل اليه.» ثم امر لهم بتحف كثيرة واحسن جائزتهم



٦
كتاب الياقوتة
في العلم والادب

قال ابو عمر احمد بن محمد بن عبد ربه : قد مضى قولنا في مخاطبة الملوك ، ومقاماتهم ، وما تفننوا فيه من بديع حكمهم والتزلف اليهم بحسن التوصل ، ولطيف المعاني، وبارع منطقهم، واختلاف مذاهبهم .
ونحن قائلون ، بحمد الله وتوفيقه في العلم والادب . فانهما القطبان اللذان عليهما مدار الدين والدنيا ، وفرق ما بين الانسان وسائر الحيوان ، وما بين الطبيعة الملكية والطبيعة البهيمة . وهو مادّة العقل، وسراج البدن، ونور القلب ، وعماد الروح وقد جعل الله بلطيف قدرته ، وعظم سلطانه بعض الاشياء ممدًّا لبعض، ومتولّدًا من بعض : فاجالة الوهم فيما تدركه الحواسّ تبعث خواطر الذكر ، وخواطر الذكر تنبّه روية الفكر ، وروية الفكر تثير مكامن الارادة ، والارادة تُحكم اسباب العمل .
فكل شيء يقوم في العقل ، ويمثل في الوهم يكون ذكرًا ، ثم فكرًا ، ثم ارادة ، ثم عملًا . والعقل متقبل العلم لا يعمل في غير ذلك شيئاً . والعلم علمان : علم حُمل ، وعلم استعمل . فما حمل منه ضرّ ، وما استُعمل منه نفع .
والدليل على ان العقل انما يعمل في تقبل العلوم كالبصر في تقبّل الالوان ، والسمع في تقبل الاصوات ، ان العاقل اذا لم يعلم شيئاً ، كان كمن لا

عقل له ؛ والطفل الصغير ، لو لم تعرّفه ادباً وتلقّنه كتاباً ، كان كأبله البهائم واضلّ الدوابّ . فان زعم زاعم فقال : « انا نجد عاقلاً قليل العلم ، فهو يستعمل عقله في قلة علمه ، فيكون اشدّ راياً ، وانبه فطنة ، واحسن موارد ومصادر ، من الكثير العلم مع قلة العقل ؟ » فان حجتنا عليه ما قد ذكرنا من حَمل العلم واستعماله ؛ فقليل العلم يستعمله العقل ، خير من كثيره يحفظه القلب .

فنون العلم

قال عبد الله بن مسلم بن قُتيبة : « من اراد ان يكون عالماً ، فليطلب فناً واحداً . ومن اراد ان يكون اديباً ، فليتفنّن في العلوم . »

وقال ابو يوسف القاضي : « ثلاثة لا يسلمون من ثلاثة : من طلب النجوم لم يسلم من الزندقة ، ومن طلب الكيمياء لم يسلم من الفقر ، ومن طلب غرائب الحديث لم يسلم من الكذب . »

الحضّ على طلب العلم

قال المهلّب لبنيه : « اياكم ان تجلسوا في الاسواق الا عند زرّاد او ورّاق . » اراد الزرّاد للحرب ، والورّاق للعلم .

شرائط العلم

قالوا : لا يكون العالم عالما حتى تكون فيه ثلاث خصال : لا يحتقر من دونه ، ولا يحسد من فوقه ، ولا يأخذ على العلم ثمناً .

العقل

قال علي (رضه) : «العقل في الدماغ ، والضحك في الكبد ، والرأفة في الطحال ، والصوت في الرئة . »

قال زياد : « ليس العاقل الذي اذا وقع في الامر احتال له ، ولكن العاقل يحتال للامر حتى لا يقع فيه . »

نوادر من الحكمة

لما قتل كسرى بزر جمهر ، وجد في منطقته مكتوباً : « اذا كان الغدر في الناس طباعاً ، فالثقة بالناس عجز . واذا كان القدر حقاً ، فالحرص باطل . واذا كان الموت راصداً ، فالطمأنينة حمق . »

البلاغة وصفتها

قيل لبعضهم : « ما البلاغة ؟ » قال : « معرفة الوصل من الفصل ! »

وقيل لآخر : ما البلاغة ؟ » قال : «ايجاز الكلام ، وحذف الفضول ، وتقريب البعيد . »

وقيل لبعضهم : « ما البلاغة ؟ » قال : « ان لا يؤتى القائل من سوء فهم السامع ، ولا يؤتى السامع من سوء بيان القائل . »

فصول من البلاغة

قيل لشبيب بن شبة ، عند باب الرشيد ، رحمه الله تعالى : « كيف رأيت الناس ؟ » قال : « رأيت الداخل راضياً ، والخارج شاكراً . »

مرّ خالد بن صفوان برجل صلبه الخليفة ، فقال : « انبتته الطاعة ، وحصدته المعصية . »

باب الحِلم ودفع السيئة بالحسنة

قال رجل لابي بكر (رضه) : « والله لاسبّنك سبًّا يدخل القبر معك . » قال : « معك يدخل لا معي ! » وشتم الرجل الشعبي ، فقال له : « ان كنت صادقاً ، فغفر الله لي ، وان كنت كاذباً ، فغفر الله لك ! »

صفة الحلم وما يصلح له

قيس بن عاصم

قيل للاحنف بن قيس : « ممن تعلمت الحِلم ؟ » قال : « من قيس بن عاصم المنقري . رأيته قاعداً بفناء داره ، محتبياً بحمائل سيفه ، يحدث قومه ؛ حتى أُتي برجل مكتوف ، ورجل مقتول . فقيل له : « هذا ابن اخيك قتل ابنك ! » : فوالله ما حلَّ حبوته ، ولا قطع كلامه . ثم التفت الى ابن اخيه فقال له : « يا ابن اخي ، اثمت بربك ، ورميت نفسك بسهمك ، وقتلت ابن عمك . » ثم قال لابن له آخر : « قم ، بنيَّ ، فوار اخاك ، وحلّ كتاف ابن عمك ، وسق الى امه مائة ناقة دية ابنها ، فانها غريبة . »

باب السؤدد

قال رجل للاحنف : « بما سوَّدك قومك ، وما انت باشرفهم بيتاً ، ولا اصبحهم وجهاً ، ولا احسنهم خلقاً ؟ » قال « بخلاف ما فيك ، يا ابن

اخي . » قال : « وما ذاك ؟ » قال : « بتركي من امرك ما لا يعنيني ، كما عناك من امري ما لا يعنيك . »

. . .

نظر رجل الى معاوية ، وهو غلام صغير ، فقال : « اني اظن ان هذا الغلام سيسود قومه . » فسمعته امه هند ، فقالت : « ثكلته ، اذا لم يسد غير قومه . »

طبقات الرجال

قال خالد بن صفوان : « الناس ثلاث طبقات : طبقة علماء ، وطبقة خطباء ، وطبقة ادباء ؛ ورجرجة بين ذلك يغلّون الاسعار ، ويضيّقون الاسواق ، ويكدّرون المياه . »

وقال الحسن : « الرجال ثلاثة : فرجل كالغذاء لا يُستغنى عنه ، ورجل كالدواء لا يُحتاج اليه الّا حيناً بعد حين ، ورجل كالداء لا يُحتاج اليه ابدًا . »

وقال الخليل بن احمد : « الرجال اربعة : فرجل يدري ، ويدري انه يدري ، فذلك العالم ، فاسألوه . ورجل يدري ، ولا يدري انه يدري ، فذاك الناسي ، فذكروه . ورجل لا يدري ، ويدري انه لا يدري ، فذاك الجاهل ، فعلّموه . ورجل لا يدري ، ولا يدري انه لا يدري ، فذلك الاحمق ، فارفضوه . »

الثقلاء

قال سهل بن هرون : « من ثقل عليك بنفسه ، وغمك بسؤاله ، فاعره

اذناً صماء وعيناً عمياء . »

كان الاعمش ، اذا حضر مجلسه ثقيل ، يقول :

فما الفيـل تحمله ، ميّتاً ، باثقــل من بعض جلّاسنا

. . .

نقش رجل على خاتمه : «أبرمتَ فقُم » فكان اذا جلس اليه ثقيل ، ناوله اياه ، وقال: « اقرأْ ما على هذا الخاتم . »

التفاؤل بالاسماء

اقبل رجل الى عمر بن الخطاب ، فقال له عمر : «ما اسمك ؟ » قال : « شهاب بن حَرقة » قال: « ممن ؟ » قال: « من اهل حَرَّة النار » قال : « واين مسكنك ؟ » قال: « بذات لظى » . قال: « اذهب ، فان اهلك قد احترقوا . » فكان كما قال عمر (رضه) .

باب الطِيرة

قال النبي (صلعم) : « ثلاث لا يكاد يسلم منهنَّ احد : الطيرة (١) والظن والحسد . » قيل « فما المخرج منهنَّ ، يا رسول الله » قال: « اذا تطيّرت فلا ترجع ، واذا ظننت فلا تحقّق ، واذا حسدت فلا تبغِ . »

وقد كانت العرب تتطيّر ، ويأتي ذلك في اشعارهم .

(١) الطيرة : ما يُتشاءم به ، واصلها في الطيور

فهرس

انتهى الجزء الاول ويليه الجزء الثاني

ابن عبد ربه

العقد الفريد

درس ومنتخبات

بقلم

فؤاد افرام البستاني

استاذ الآداب العربية في كليّة القديس يوسف

الجزء الثاني

المطبعة الكاثوليكية

بيروت

١٩٢٧

ابن عبد ربه والعقد الفريد

ابو عمر احمـــد بن محمد بن عبد ربه، احد موالي بني امية، في الاندلس، وُلد في قرطبة سنة ٨٦٠، وبها نشأ فمال الى الادب من نثر ونظم فبرع فيهما، واتقن الفقه والتاريخ، ودرس بعض العلوم المعروفة في عصره من موسيقى وطب وغير ذلك. واتصل بعبد الرحمن بن محمد، احد امراء الامويين في الاندلس، فمدحه بشعر كثير، فاكثر له هذا العطاء. وعمّر ابن عبد ربه حتى جاوز الثمانين، فاصيب بفالج في آخر حياته قضى عليه في ٣ اذار ٩٤٠

وقد ترك ابن عبد ربه من الآثار شعرًا كثيرًا جمع في اكثر من عشرين مجلدًا على قول الحميدي. على ان افضل ما خلّفهُ كتاب «العقد» الـــذي نعته الادباء من زمن بعيد «بالفريد» فصار يُعرف «بالعقد الفريد». وهو مجموعة ادبية علمية تاريخية ضمنها المؤلف جميع ما عرف ورأى في كتب عصره من اخبـــار العلماء، ونوادر الشعراء، وآراء الحكماء، وسير الملوك والامراء، وقسمها الى ٢٥ كتاباً دعا كل كتاب منهـــا باسم جوهرة من جواهر العقد. وقد بحثنا في كل ذلك بالتفصيل في مقدمة الجزء الاول من هذه المنتخبات، فلتُراجع.

وقد نشرنا من منتخبات هـــذا المؤلَّف، في الجزء الاول، مقدمته والكتب: الاول في السلطان، والثاني في الحروب، والثالث في الاجواد، والرابع في الوفود، والخامس في مخاطبة الملوك. وكان انتهاء الجزء الاول في نصف الكتاب السادس وهو كتاب الياقوتـــة في العلم والادب، فيتابع المؤلف قوله ويتكلم عن «الاخوان وما يجب لهم»

اتخاذ الاخوان وما يجب

في الحديث: «المرء كثير باخيه»

وقال شبيب بن شبة: « اخوان الصفا خير من مكاسب الدنيا، زينــة في الرخاء، وعدة في البلاء، ومعونة على الاعداء. » وانشد ابن الاعرابي:

لعمرك، ما مال الفتى بذخيرة، ولكن اخوان الصفاء الذخائرُ

وقالوا: « خير الاخوان من اقبل عليك، اذا ادبر الزمــان عنك. »

فضل الصداقة على القرابة

قيل لبزرجمهر: « من احب اليك اخوك او صديقك؟ » فقــال: « ما احب اخي الاّ اذا كان لي صديقاً!» قال اكثم بن صيفي: « القرابة تحتاج الى مودة، والمودة لا تحتاج الى قرابة. »

التحبُّب الى الناس

في الحديث المرفوع: « احب النــاس الى الله، اكثرهم تحبباً الى الناس.» وفيه ايضاً: « اذا احبّ الله عبداً، حبّبه الى الناس. »

ومن قولنا في هذا المعنى:

وجهٌ عليه، من الحياء، سكينةٌ ومحبــة تجري مــع الانفــاس

واذا احبَّ الله يومــاً عبــدَه، القى عليــه محبــة للنــاس

قيل لمعاوية: « من احب الناس اليك؟ » قال: « من كانت له عندي

يد صالحة » قيل له : « ثم من ؟ » قال : « من كانت لي عنده يد صالحة . »

محاسدة الاقارب

كتب عمر بن الخطاب (رضه) الى ابي موسى الاشعري : « مرْ ذوي القرابات ان يتزاوروا ولا يتجاوروا . »

قيل لبزرجمهر : « ما تقول في ابن العم ؟ » قال : « هو عدوّك ، وعدوّ عدوِّك »

المنصور والاعرابي

حدث الشيباني قال : خرج ابو العباس ، امير المؤمنين ، متنزهاً بالانبار . فامعن في نزهته ، وانتبذ من اصحابه . فوافى الى خباء لاعرابي ، فقال له الاعرابي : « ممن الرجل ؟ » قال : « من كنانة » . قال : « من اي كنانة ؟ » قال : « من ابغض كنانة الى كنانة . » قال : « فانت اذًا من قُريش » قال : « نعم » . قال : « فمن اي قُريش ؟ » قال : « من ابغض قريش الى قريش . » قال : « فانت اذًا من وُلد عبد المطلب . » قال : « نعم » . قال : « فمن ايّ وُلد عبد المطلب انت ؟ » قال : « من ابغض وُلد عبد المطلب الى وُلد عبد المطلب . » قال : « فانت اذًا امير المؤمنين . السلام عليك ، يا امير المؤمنين ، ورحمة الله وبركاته ! » فاستحسن ما رأى منه ، وامر له بجائزة .

مداراة اهل الشر

عُرض على ابي مسلم ، صاحب الدعوة ، فرس جواد . فقال لقوّاده : « لماذا يصلح مثل هذا الفرس ؟ » قالوا : « انا نغزو عليه العدو . » قال :

« لا ! ولكن يركبه الرجل ، فيهرب عليه من جار السوء . »

قال احدهم :

بلاءٌ ليس يشبهه بلاء　　عداوةُ غير ذي حسبٍ ودين
يبيحك ، منه ، عرضاً لم يصنه　　ليرتعَ ، منك ، في عرضٍ مصونِ

باب في تأديب الصغير

قالت الحكماء : « من ادّب ولده صغيراً ، سُرَّ به كبيراً »

قال ابن عباس : « من لم يجلس في الصغر حيث يكره ، لم يجلس في الكبر حيث يُحب »

باب الادب في العيادة

دخل رجل على عمر بن عبد العزيز يعوده في مرضه ، فسأله عن علته؛ فلما اخبره قال : « من هذه العلّة مات فلان ، ومات فلان . . . » فقال له عُمر : « اذا عُدت المرضى فلا تنعِ اليهم الموتى . واذا خرجت عنا فلا تعُد الينا »

. . .

مرض الاعمش فابرمه الناس بالسؤال عن حاله . فكتب قصته في كتاب ، وجعله عند رأسه . فاذا سأله احد قال : « عندك القصة في الكتاب ، فاقرأها . »

باب الادب في المؤاكلة

قــال النبي (صلعم) : « اذا اكل احدكم، فليأكل بيمينه، وليشرب بيمينه . فان الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله» .

ومن الادب ، ان يبدأ صاحب الطعام بغسل يده ، قبل الطعـام. ثم يقول لجلسائه : «من شاء منكم فليغسل» . فاذا غسل بعد الطعــام ، فليقدّمهم ويتأخر .

باب الكناية والتعريض

دخل حارثة بن بدر على زياد ، وفي وجهه أثر ، فقال له زياد : « ما هذا الاثر الذي في وجهك ؟ » قال : «ركبت فرسي الاشقر فجمح بي . » فقال : « اما انك لو ركبت الاشهب ، لما فعل ذلك . » فكنى حارثة بالاشقر عن النبيذ ؛ وكنى زياد بالاشهب عن اللبن .

باب في الكناية والتعريض في طريق الدعاية

النميري والتميمي

مرَّ رجل من بني نمير برجل من بني تميم على يده بازي ، فقال التميمي للنميري : «هذا البازي؟ » قال له النميري : «نعم! وهو يصيد القطا !» اراد التميمي قول جرير :

انا البــازي المطلُّ على نمير   اتيح لهــا من الجو انصبابا

واراد النميري قول الطرماح:

تيمٌ، بطُرق اللؤم، اهدى من القطا، ولو سلكت سبل المكارم، ضلّت

باب في الصمت

قال ابو الدرداء: «انصف اذنيك من فيك. فانما جُعل لك اذنان اثنتان وفم واحد، لتسمع اكثر مما تقول.»

باب في تكليف الرجل ما ليس من طبعه

قالوا ان ملكا من ملوك فارس كان له وزير حازم مجرَّب. فكان يصدر عن رأيه، ويتعرَّف اليمن في مشورته. ثم انه هلك ذلك الملك، وقام بعده ولده. فعجب بنفسه مستبدًا برأيه ومشورته. فقيل له: «ان اباك كان لا يقطع امرًا دونه.» فقال: «كان يغلط فيه وسأمتحنه بنفسي.» فارسل اليه فقال له: «ايهما اغلب على الرجل، الادب او الطبيعة.» فقال له الوزير: «الطبيعة اغلب لانها اصل، والادب فرع. وكل فرع يرجع الى اصله.» فدعا بسفرته. فلما وُضعت، اقبلت سنانير بايديها الشمع، فوقفت حول السفرة. فقال الوزير: «اعتبر خطأك وضعف مذهبك. متى كان ابو هذه السنانير شمّاعا؟» فسكت عنه الوزير وقال: «امهلني في الجواب الى الليلة المقبلة.» فقال: «ذلك لك!» فخرج الوزير، فدعا بغلام له، فقال: «التمس لي فارًا، واربطه في خيط، وجئني به.» فاتاه به الغلام. فعقد الخيط في سبنيّته،(١) وطرحه في كمه. ثم راح من الغد الى الملك

---

١) السبنيَّة: نسبة الى سبن، قرية في نواحي بغداد، نوع من الأزر السود

فلما حضرت سفرته ، اقبلت السنانير بالشمع حتى صفّت بها . فحلّ الوزير الفار من سبنيّته ، ثم القاه اليها . فاستَبَقَت السنانير اليه ، ورمت بالشمع حتى كاد البيت يضطرم عليهم نارًا . فقال الوزير : «كيف رأيت غلبة الطبع على الادب ورجوع الفرع الى اصله ؟» قال : «صدقت !» ورجع الى ما كان ابوه عليه معه . فانما مدار كل شيء على طبعه ، والتكلف مذموم من كل وجه .

الاقلال

قال ارسطاطاليس : «الغنى في الغربة وطن ، والمقلّ في اهله غريب .»

فقر ابي الشمقمق

كان ابو الشمقمق الشاعر اديباً ظريفاً محارفاً صعلوكاً متبرّماً ، قد لزم بيته في اطمار مسحوقة . وكان اذا استفتح عليه احد بابه ، خرج فنظر من فرج الباب ؛ فان اعجبه الواقف ، فتح له ؛ والا سكت عنه . فاقبل اليه بعض اخوانه ، فدخل عليه . فلما رأى سوء حاله قال له : «ابشر ، ابا الشمقمق ، فقد روينا في بعض الحديث "ان العارين في الدنيا هم الكاسون يوم القيامة ." » قال : «ان كان ، والله ، ما تقول حقاً ، لاكوننّ بزّازًا يوم القيامة» . ثم انشأ يقول :

انا في حالٍ ، تعالى الله ربي ، ايّ حالِ !
ليس لي شيء ، إذا قيلَ : «لمن ذا؟» قلت : «ذا لي!»
ولقد اهزلت ، حتى محتِ الشمسُ خيالي .
ولقد افلست ، حتى حلّ اكلي لعيالي .

من رأى شيئاً محالاً ؟ فانا عين المحالِ !
لو ارى في الناس حرّاً ، لم اكن في ذا المِثال .

وقال ايضاً :

اتراني أرى، من الدهر، يوماً ، ليَ فيه مطيةٌ ، غير رجلي ؟
كلما كنت في جموعٍ فقالوا : «قرّبوا للرحيلِ .» قربت نعلي ؛
حيثما كنت ، لا اخلّف رحلاً . من رآني ، فقد رآني ورحلي .

وقال ايضاً :

لو قد رأيتَ سريري، كنت ترحمني الله يعلم، ما لي فيه تلبيسُ (١
والله يعلم ما لي فيه شابكة الا الحصيرة ، والاطمار ، والديسُ (٢

وقال ايضاً :

برزت من المنازل والقبابِ ، فلم يعسر على احدٍ حجابي ؛
فمنزليَ الفضاء ، وسقف بيتي سماء الله او قطعُ السحابِ .
فانت ، اذا اردتَ، دخلت بيتي عليَّ مسلّماً ، من غير بابِ ،
لاني لم اجد مصراعَ بابٍ ، يكون من السحابِ الى التراب ؛
ولا انشق الثرى عن عود نحتٍ اؤمل ان اشدَّ به ثيابي
ولا خفت الإِباق على عبيدي ، ولا خفت الهلاك على دوابي ؛
ولا حاسبت ، يوماً ، قهرماناً محاسبة ، فاغلط في حسابي .
وفي ذا راحةٌ ، وفراغ بالٍ ، فدأب الدهر ذا ، ابداً ، ودابي !

---

١) التلبيس : ستر الحقيقة واظهارها بخلاف ما هي عليه

٢) الديس : نوع من القصب

٧
كتاب الجوهرة
في الامثال

من ضرب به المثل من الناس

قالت العرب : اسخى من حاتم، واشجع من ربيعة بن مكدم، وانكى من قيس بن زهير، واعزّ من كليب وائل، واوفى من السموأل، وازكن (١ من اياس بن ربيعة، واسود من قيس بن عاصم، وامنع من الحرث بن ظالم، وابلغ من سحبان وائل، واحلم من الاحنف بن قيس، واصدق من ابي ذرّ الغفاري، واكذب من مسيلمة الحنفي، واعيي من باقل، وامضى من سليك المقانب، وانعم من خريم الناعم، واحمق من هبنّقة، وافتك من البُراض .

من يُضرب به المثل من النساء

يقال : اشأم من البسوس !

البسوس جارة جسّاس بن مرّة بن ذهل بن شيبان . ولها كانت الناقة التي قُتل من اجلها كليب بن وائل ؛ وبها ثارت بين بكر بن وائل وتغلب الحرب التي

---

١) ازكن : من الزكانة وهي فهم حقيقة الشيء بتفرّسه

يقال لها : « حرب البسوس » (١

واحمق من دُغة !

دُغة امرأة من عجل بن نُجيم، تزوجت في بني العنبر بن عمرو بن تميم

وامنع من أُم قرفة !

هي امرأة مالك بن حذيفة بن بدر الفزاري، وكان يتعلّق في بيتها خمسون سيفاً كل سيف منها لذي محرم لها

وابصر من زرقاء اليمامة !

زرقاء بني نمير ؛ امرأة كانت باليمامة ، تبصر الشعرة في اللبن ، وتنظر الراكب على مسيرة ثلاثة ايام

ومما ضربوا به المثل

قولهم : قوس حاجب

فسرّنا خبره (٢

قرط مارية

مارية بنت ظالم بن وهب بن الحرث بن معاوية الكندي ، واختها هند الهنود، امرأة حجر آكل المرار، وابنها الحرث الاعرج الذي ذكره النابغه بقوله :

« والحرث الاعرج خير الانام »

حجّام ساباط

كان يحجم الجيوش بنسيئة (٣ الى انصرافهم، من شدّة كساده ، وكان فارسياً .

---

١) اطلب المجلد الثالث من الروائع —المهلهل — وفيه تفصيل حرب البسوس

٢) راجع (ص: ٤٠)

٣) اي ديناً

شقائق النعمان

نسبت اليه لان النعمان بن المنذر امر بان تُحمى، وتُضرب قبّته فيها، استحسانًا لها

حديث خُرافة

ان انس بن مالك يروي عن النبي (صلعم) انه قال لعائشة (رضه) : « ان من اصدق الاحاديث حديث خرافة ». وكان رجلًا من بني عذرة سبته الجن. وكان معهم، فاذا استرقوا السمع اخبروه، فيخبر به اهل الارض، فيجدونه كما قال

خفا حنين

كان حنين اسكافًا، من اهل الحيرة، ساومه اعرابي بخفين، فاختلفا حتى اغضبه. فاراد ان يغيظ الاعرابي، فلما ارتحل اخذ احد الخفين، فالقاه في طريق الاعرابي. ثم القى الآخر بموضع آخر على طريقه. فلما مرَّ الاعرابي بالخفّ الاول، قال : « ما اشبه هذا بخفّ حنين، لو كان معه صاحبه لاخذته ». فلما مرَّ بالآخر ندم على ترك الاول، فاناخ راحلته، وانصرف الى الاول، وقد كمن له حنين، فوثب على راحلته وذهب بها. واقبل الاعرابي، ليس معه غير خفي حنين، فذهبت مثلًا

عطر منشم

منشم امرأة كانت تبيع الحنوط في الجاهلية. فقيل للقوم، اذا تحاربوا، « دقوا معهم عطر منشم » يراد بذلك طيب الموتى

ندامة الكسعي

هو رجل رمى فاصاب، فظنَّ انه اخطأ. فكسر قوسه. فلما علم ندم على كسر قوسه. فضرب به المثل

امثال مستعملة في الشعر

قال الاصمعي: لم اجد في شعر شاعر بيتاً اوله مثل وآخره مثل، الا ثلاثة ابيات منها بيت الحطيئة:

من يفعل الخيرَ لا يُعدم جوائزه، لا يذهب العرف بين الله والناس!

وبيتان لامرئ القيس.

ومثل هـذا كثير في القديم والحديث؛ ولا ادري كيف اغفل القديم منه الاصمعي، فمنه قول طرفة:

ستبدي لك الايام ما كنت جاهلًا ويأتيك بالاخبـار من لم تزوّد

٨

كتاب الزمرّدة

في المواعظ والزهد

وقف حكيم بباب بعض الملوك، فحُجب. فتلطف لرقعة وصلت اليه، فكتب فيها هذا البيت :

الم ترَ ان الفقر يُرجى له الغنى   وأنّ الغنى يُخشى عليه من الفقر !

فلما قرأ البيت لم يلبث ان انتقل، وجعل لاطيةً على رأسه، وخرج في ثوب فاضل؛ فقال له : « والله، ما اتعظت بشيء بعد القرآن اتعاظي ببيتك هذا ! » ثم قضى حوائجه

. . .

قال عيسى بن مريم، عليهما السلام، للحواريين : « اتخذوا المساجد بيوتاً، والبيوت منازل، وكلوا بقل البرية، واشربوا الماء القراح، وانجوا من الدنيا سالمين ».

وقال يحيي بن زكريا، عليه السلام، للمكذّبين من بني اسرائيل : « يا نسل الافاعي، من دلّكم على الدخول في المساخط الموبقة بكم ؟ ويلكم ! تقرّبوا بعمل صالح، ولا تغرّنكم قرابتكم من ابراهيم. فان الله قادر على ان يستخرج من هذه الجنادل نسلاً لابراهيم. ان الفاس قد وضعت في اصول الشجر، فاخلِق بكل شجرة مرّة الطعم، ان تُقطع وتُلقى في النار ! ».

٩
كتاب الدرّة
في التعازي والمراثي

قال الاصمعي : قلت لاعرابي : « ما بال المراثي اشرف اشعاركم ؟ » قال : « لانا نقولها وقلوبنا محترقة ! »

المراثي

مالك بن الريب يرثي نفسه

قال مالك بن الريب يرثي نفسه، ويصف قبره . وكان خرج مع سعيد ابن عفان، اخي عثمان بن عفّان، لما ولي خراسان . فلما كان ببعض الطريق، اراد ان يلبس خفّه، فاذا بافعى في داخله فلسعته . فلما احسّ بالموت، استلقى على قفاه . ثم انشأ يقول :

دعاني الهوى من اهل ودّي وصحبتي، بذي الطبسين، فالتفت ورائيا

. . .

فيا صاحبَي رحلي، دنا الموت، فاحفرا ترابه . اني مقيم لياليا !

وخطّا، باطراف الاسنّة، مضجعي؛ وردّا، على عينيّ، فضلَ ردائيا

ولا تحسداني، بارك الله فيكما، من الارض ذات العرض، ان توسعا ليا!

ويلي ذلك مراثي عديدة لشعراء العرب منها اقوال صاحب الكتاب، ابن عبد ربه، في ابنه:

من قولي في والدي :

وا كبدا ! قد تقطّعت كبدي ! قد حرقتها لواعج الكمدِ !

ما مات حيٌّ لميّتٍ اسفاً اعذر من والدٍ على ولدِ !

يا رحمةَ الله، جاوري جدثاً دفنت فيه حُشاشتي بيدي

ونوّري ظلمة القبور على من لم يصل ظلمه الى احدِ

. . .

يا موته، لو اقلت عثرته ! يا يومه، لو تركته لغدِ !

. . .

قال الاصمعي : لم يبتدئ احد بمرثية باحسن من ابتداء اوس بن حَجر:

ايتها النفس، اجملي جزعا ! ان الذي تحذرين قد وقعا.

١٠

كتاب اليتيمة

في النسب وفضائل العرب

اصل النسب

حدث معاوية بن صالح ، عن يحيي بن سعيد بن المسيب قال : ولد نوح ثلاثة اولاد : سام وحام ويافث ، فولد سام العرب ، وفارس ، والروم . وولد حام السودان ، والبربر ، والقبط . وولد يافث الترك ، والصقالبة ، ويأجوج ومأجوج .

قول دغفل في قبائل العرب

سأل زياد دغفلًا عن العرب ، فقال : « الجاهلية ليمن ، والاسلام لمضر ، والفتنة لربيعة . » قال : « فاخبرني عن مُضر . » قال : « فاخر بكنانة ، وكابِر بتميم ، وحارب بقيس ففيها الفرسان والنجوم ، واما اسد ففيها ذلٌّ وكيد . »

ويلي ذلك بحث طويل في نسب قريش وغيرها من قبائل العرب . ثم كلام الشعوبيين وحججهم على العرب ؛ وردّ ابن قتيبة عليهم ، وردّهم على ابن قتيبة .

١١

كتاب العسجدة

في كلام الاعراب

تكلم ربيعة الرأي ، يوماً ، بكلام في العلم ، فاكثر ؛ فكانما العجب داخله . فالتفت الى اعرابي الى جنبه ، فقال : «ما تعدّون البلاغة ، يا اعرابي ؟» قال : « قلة الكلام في ايجاز الصواب . » قال : « فما تعدّون العي ؟» قال : «ما كنتَ فيه منذ اليوم ! » فكانما القمه حجراً .

الاعرابي ومالك بن طوق

حدث الشيباني قال : اقبل اعرابي الى مالك بن طوق ، فاقام بالرحبة حيناً . وكان الاعرابي من بني اسد ، صعلوكاً ، في عباءة صوف وشملة شعر . فكلما اراد الدخول ، منعه الحجاب ، وشتمه العبيد ، وضربه الاشراط . فلما كان في بعض الايام ، خرج مالك بن طوق يريد التنزه ، حول الرحبة ، فعارضه الاعرابي ؛ فضربوه ومنعوه ، فلم يثنهِ ذلك حتى اخذ بعنان فرسه . ثم قال : «ايها الامير ، اني عائذ بالله من اشراطك هؤلاء ! » فقال مالك : « دعوا الاعرابي ! هل من حاجة يا اعرابي ؟ » . قال : « نعم ، اصلح الله الامير ، ان تُصغي اليَّ بسمعك ، وتنظر اليَّ بطرفك ، وتقبل اليَّ بوجهك . » قال : «نعم !» فأنشأ الاعرابي يقول :

ببابك، دون الناس، انزلت حاجتي واقبلت اسعى حوله، واطوفُ؛
ويمنعني الحجّاب، والستر مُسبلٌ، وانت بعيدٌ، والشروط صفوفُ
يدورون حولي، في الجلوس، كانهم ذئابٌ جياعٌ، بينهن خروفُ.
فاما، وقد ابصرت وجهك مقبلا فاصرف عني، انني لضعيفُ
ومالي، من الدنيا، سواك، ولا، لمن تركت ورائي، مربع ومصيفُ

. . .

فجئتك ابغي اليُسر منك، فمرّ بي، ببابك، من ضرب العبيد، صنوفُ
فلا تجعلَنْ لي، نحو بابك، عودةً فقلبي، من ضرب الشروط، مخوفُ

فاستضحك مالك حتى كاد ان يسقط عن فرسه. ثم قال لمن حوله: «من يعطيه درهماً بدرهمين، وثوباً بثوبين؟» فوقعت عليه الثياب والدراهم من كل جانب، حتى تحيّر الاعرابي. ثم قال: «هل بقيت لك حاجة، يا اعرابي؟» قال: «اما اليك فلا!» قال: «فالى من؟» قال: «الى الله ان يبقيك للعرب، فانها لا تزال بخير ما بقيت لها.»

الاعرابي وهشام بن عبد الملك

دخل اعرابي على هشام بن عبد الملك فقال: «يا امير المؤمنين، اتت علينا ثلاثة اعوام: فعام اذاب الشحم، وعام اكل اللحم، وعام انقى العظم. وعندكم اموال، فان تكن لله، فبثوها في عباد الله؛ وان تكن للناس، فلِمَ تُحجب عنهم؟ وان تكن لكم، فتصدّقوا! ان الله يجزي المتصدّقين!» قال هشام: «هل من حاجة غير هذه، يا اعرابي؟» قال: «ما ضربت اليك اكباد الابل، ادّرع الهجير، واخوض الدجى، لخاصّ

دون عامّ .» فامر هشام باموال فُرّقت في الناس، وامر للاعرابي بمال فرّقه في قومه .

. . .

حدث الاصمعي قال : سمعت اعرابياً يقول : « اذا اشكل عليك امران ، فانظر ايهما اقرب من هواك فخالفه ! فان اكثر ما يكون الخطأ مع متابعة الهوى . »

. .

قولهم في الذم

قال اعرابي لرجل : «انت، والله ممن اذا سأل ألحف ، واذا سُئل سوَّف، واذا حدَّث حلف ، واذا وعد اخلف ، تنظر نظر حسود ، وتُعرض اعراض حقود .»

قولهم في الاعراب

حدث الاصمعي قال : رأيت اعرابياً ومعه بُني له صغير ، ممسك بفم قربة، وقد خاف ان تغلبه القربة ، فصاح : « يا ابتِ ، ادرك فاها ، غلبني فوها ، لا طاقة لي بفيها .»

قولهم في النوادر والملح

الحجاج والاعرابي

خرج الحجاج متصيِّدًا بالمدينة . فوقف على اعرابي يرعى ابلًا له، فقال له : «يا اعرابي ، كيف رايت سيرة اميركم الحجّاج ؟» قال له الاعرابي : « غشوم ، ظلوم ، لا حياه الله !» فقال : « فلمَ لا شكوتموه الى امير المؤمنين

عبد الملك ؟» قال: « فاظلم واغشم ! » فبينا هو كذلك ، اذ احاطت به الخيل . فاومأ الحجاج الى الاعرابي فأُخذ وحُمل . فلما صار معه قال : « من هـذا ؟ » قالوا له: «الحجاج ! » فحرَّك دابته حتى صار بالقرب منـه ، ثم ناداه: «يا حجّاج !» قال: «ما تشاء ، يا اعرابي ؟» قال: « السرّ الذي بيني وبينك احب ان يكون مكتوماً ! » فضحك الحجاج ، وامر بتخلية سبيله .

١٢

كـتاب المجنَّبة

في الاجوبة

جواب عقيل بن ابي طالب لمعاوية

دخل عقيل على معاوية ، وقد كُفَّ بصره ، فاجلسه معاوية على سريره ، ثم قال له : «انتم، معشر بني هاشم، تصابون في ابصاركم .» قال: «وانتم ، معشر بني امية ، تُصابون في بصائركم .»

مجاوبة الامراء والردّ عليهم

ابو الطفيل ومعاوية

قال معاوية لابي الطفيل : «انت من قَتَلَة عثمان ! » قال : «لا، ولكني ممن حضره ولم ينصره » قال : « وما منعك من نصره ؟ » قال : «لم ينصره المهاجرون والانصار، فلم انصره . » قال : « لقد كان حقّه واجباً، وكان عليهم ان ينصروه .» قال : « فما منعك من نصرته ، يا امير المؤمنين ، وانت ابن عمّه ؟ » قال « : اوَ ما طلبي بدمه نصرة له ؟ » فضحك ابو الطفيل وقال : «مَثَلك ومَثَل عثمان كما قال الشاعر :

لاعرفنَّك ، بعد الموت، تندبني؛ وفي حياتي، ما زودتني زادا »

قال معاوية لصحار بن العبدي : « يا ازرق ! » قال : « البازي ازرق . » فقال : « يا احمر ! » قال : « الذهب احمر . » قال : « ما هذه البلاغة فيكم ، عبد القيس ؟ » قال : « شيء يختلج في صدورنا فتقذفه السنتنا ، كما يقذف البحر الزبد » قال : « فما البلاغة عندكم ؟ » قال : « ان نقول فلا نخطئ ، ونجيب فلا نبطئ . »

جواب في هزل

كان للمغيرة بن عبد الله الثقفي، وهو والي الكوفة، جدي يوضع على مائدته . فحضره اعرابي ، فمدَّ يده الى الجدي وجعل يُسرع فيه . فقال له المغيرة : « انك لتأكله بجرد ، كانَّ امه نطحتك » قال : « وانك لمشفق عليه كان امَّه ارضعتك . »

. . .

قال عبد الله بن صفوان ، وكان امياً ، لعبد الله بن جعفر بن ابي طالب : « ابا جعفر ، لقد صرت حجة لفتياننا علينا . اذا نهيناهم عن الملاهي قالوا : هذا ابن جعفر ، سيد بني هاشم ، يحضرها ويتخذها . » قال له : « وانت ، ابا صفوان، صرت حجة لصبياننا علينا . اذا لمناهم في ترك المكتب قالوا : هذا ابو صفوان ، سيد جُمح، لا يقرأ آية ولا يخطها ! »

١٣

كتاب الواسطة

في الخطب

من خطبة ابي بكر

ايها الناس، اني قد وليت عليكم، ولست بخيركم. فان رأيتموني على حق، فاعينوني؛ وان رأيتموني على باطل، فسدّدوني. اطيعوني ما اطعت الله فيكم؛ فاذا عصيته، فلا طاعة لي عليكم. ألا ان اقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له، واضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه. اقول قولي هذا، واستغفر الله لي ولكم.

من خطبة زياد البتراء (١

قدم زياد البصرة واليًا لمعاوية بن ابي سفيان، واليه خراسان وسجستان، والفسق بالبصرة ظاهر فاش، فخطب :

اما بعد، فان الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء، والعمى الموفي باهله على النار، ما فيه سفهاؤكم، وتشتمل عليه حلماؤكم من الامور العظام، ينبتّ فيها الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير . . .

---

١) البتراء: مؤنث الابتر وهو في الاصل، منقطع الذنب؛ ثم كل امر ناقص منه شيء. سميت كذلك لان زيادًا لم يبدأها بحمد الله

واني اقسم بالله، لآخذنّ الوليّ بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والصحيح بالسقيم، حتى يلقى الرجل منكم اخاه فيقول: « انجُ سعيد، فقد هلك سعد! » او تستقيم لي قناتكم. ان كذبة الامير تلفى مشهورة؛ فاذا تعلقتم علي بكذبة، فقد حلّت لكم معصيتي. من نُقب منكم عليه، فانا ضامن لما ذهب له. فاياي ودَلَج (١) الليل، فاني لا أُوتى بمدلج الا سفكت دمه، وقد اجلتكم في ذلك بقدر ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع اليكم. واياي ودعوى الجاهلية، فاني لا اجد احدًا ادّعى بها الا قطعت لسانه.

وقد احدثتم احداثاً لم تكن. وقد احدثنا لكل ذنب عقوبة: فمن اغرق قوماً اغرقناه، ومن احرق قوماً احرقناه، ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه، ومن نبش قبرًا دفناه فيه حيا. فكفوا عني السنتكم وايديكم، اكف عنكم يدي ولساني... وقد كانت بيني وبين قوم إحن، فجعلت ذلك دبر اذني، وتحت قدمي. فمن كان محسناً فليزدد في احسانه، ومن كان مسيئاً فلينزع عن اساءته

من خطبة للحجاج بعد وقعة دير الجماجم

يا اهل العراق! ان الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم، والعصب، والمسامع، والاطراف، والاعضاء، والشغاف (٢)، ثم امضى الى الامخاخ، والاصماخ. ثم ارتفع فعشّش؛ ثم باض ففرّخ، فحشاكم شقاقاً ونفاقاً! وان اشعركم خلافاً اتخذتموه دليلًا تتبعونه، وقائدًا تطيعونه،

---

١) الدلَج : السير في الليل من اوله

٢) الشَغاف : غلاف القلب

ومؤمّرًا تستشيرونه. وكيف تنفعكم تجربة، او تعظكم وقعة، او يحجزكم اسلام، او يردّكم ايمان؟ ألستم اصحابي بالاهواز حيث رمتم المكر، وسعيتم بالغدر، واستجمعتم للكفر، وظننتم ان الله يخذل دينه وخلافته. وانا ارميكم بطرفي، وانتم تتسلّلون لواذًا،(١ وتنهزمون سراعًا؛ يوم الزاوية. وما يوم الزاوية! بها كان فشلكم وتنازعكم وتخاذلكم، وبراءة الله منكم، ونكوص وليّهِ عنكم؛ اذ ولّيتم كالابل الشوارد الى اوطانها، النوازع الى اعطانها، لا يسأل المرء منكم عن اخيه، ولا يلوي الشيخ على بنيه؛ حتى عضّكم السلاح، وقَصَمتكم الرماح، يوم دير الجماجم. وما دير الجماجم! بها كانت المعارك والملاحم، بضرب يزيل الهام عن مقيله، ويذهل الخليل عن خليله.

يا اهل العراق! هل استخفّكم ناكث، واستغواكم غاوٍ، واستفزّكم عاصٍ، واستنصركم ظالم، واستعضكم خالع، إلّا وثقتموه وآويتموه وغررتموه ونصرتموه ورضيتموه؟.

يا اهل العراق! هل شغب شاغب، او نعب ناعب، او نعق ناعق، او زفر زافر، إلّا كنتم اتباعه وانصاره؟ يا اهل العراق! الم تنهكم المواعظ؟ ألم تزجركم الوقائع؟.

. . .

قيل لعبد الملك بن مروان: «عجّل عليك المشيب، يا امير المؤمنين.» فقال: «كيف لا يعجل، وانا اعرض عقلي على الناس، في كل جمعة، مرة او مرتين!»

---

١) لواذًا: اي بمحاتلة ومراوغة. اللِواذ: مصدر لاوذ اى راوغ

من ارتج عليه في خطبته

اول خطبة خطبها عثمان بن عفان ، أرتج عليه . فقال : ايها الناس ، ان اول كل مركب صعب . وان اعش ، تأتكم الخطب على وجهها . وسيجعل الله بعد عُسر يسرًا ، ان شاء الله . »

. . .

صعد ثابت قطنة منبر سجستان ، فقال : «الحمد لله» ثم أرتج عليه ، فنزل ، وهو يقول :

فان لا اكن ، فيهم ، خطيباً فانني   بسيفي ، اذا جدَّ الوغى ، لخطيبُ !

فقيل له : «لو قلتها ، فوق المنبر ، كنت اخطب الناس !»

١٤

كتاب المجنَّبة الثانية

في التوقيعات، والفصول، والصدور، واخبار الكتبة

اول من وضع الكتابة

اول من وضع الخط العربي والسرياني، وسائر الكتب آدم (صلعم)، قبل موته بثلثمائة سنة، كتبه في الطين ثم طبخه. فلما كان ما اصاب الارض من الغرق، وجد كل قوم كتابهم، فكتبوا به. فكان اسمعيل، عليه الصلاة والسلام، وجد كتاب العرب.

. . .

وحكوا ايضاً: ان ثلاث نفر من طيئ اجتمعوا ببقعة، وهم مرامر بن مرة، وأسلم بن سدرة، وعامر بن جدرة، فوضعوا الخطّ وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية. فتعلّمه قوم من الأَنبار. وجاء الاسلام وليس احد يكتب بالعربية، غير بضعة عشر انساناً.

تاريخ الكتاب

لا بد من تاريخ الكتاب لانه لا يُدلّ على تحقيق الاخبار، وقرب عهد

الكتاب وبعده، الا بالتاريخ. فاذا اردت ان تؤرخ كتابك فانظر الى ما مضى من الشهر، وما بقي منه. فان كان ما بقي اكثر من نصف الشهر، كتبت: «لكذا وكذا ليلة مضت من شهر كذا.» وان كان الباقي اقل من النصف، جعلت، مكان «مضت»، «بقيت».

تفسير الأُمّي

فاما الأُمّي فمجازه على ثلاثة وجوه: قولهم: «امي» منسوب الى امة رسول الله (صلعم). ويقال: «رجل امّي» اذا كان من ام القرى. واما قوله تعالى: «النبي الامي» فانما اراد به الذي لا يقرأ ولا يكتب والامّية في النبي (صلعم) فضيلة لانها ادلّ على صدق ما جاء به انه من عند الله، لا من عنده. وكيف يكون من عنده، وهو لا يكتب ولا يقرأ، ولا يقول الشعر ولا ينشده!

صفة الكتّاب

قال ابراهيم بن محمد الشيباني: من صفة الكاتب اعتدال القامة، وصغر الهامة، وخفة اللهازم (١)، وكثافة اللحية، وصدق الحس، ولطف المذهب، وحلاوة الشمائل، وحسن الاشارة، وملاحة الزي. حتى قال بعض الملاهبة لولده: «تزيّوا بزيّ الكتّاب، فان فيهم ادب الملوك وتواضع السوقة!».

---

(١) اللهازم: جمع اللهزمة وهي عظم ناتئ في اللحي تحت الاذن

ما يجوز في الكتابة وما لا يجوز فيها

ولكل مكتوب اليه قدر ووزن، ينبغي للكاتب ان لا يجاوزه عنه، ولا يقصر به دونه. وقد رأيتهم عابوا الاحوص، حين خاطب الملوك خطاب العوامّ، في قوله:

وأراك تفعل ما تقول، وبعضهم مذق اللسان، يقول ما لا يفعلُ

وهذا معنى صحيح في المدح. ولكنهم اجلّوا قدر الملوك ان يُمدَحوا بما تُمدح به العوامّ. لان صدق الحديث، وانجاز الوعد، وان كان من المدح، فهو واجب على العامّة. والملوك لا يُمدحون بالفرائض الواجبة؛ انما يحسن مدحهم بالنوافل. لان المادح لو قال لبعض الملوك. «انك لا تخون ما استودعتَ، وانك لتصدق في وعدك، وتفي بعهدك!» فكأنه قد أثنى بما يجب... ونحن نعلم ان كل امير يتولّى من امير المؤمنين شيئاً، فهو امير المؤمنين؛ غير انهم لم يطلقوا هذه اللفظة الا في الخلفاء خاصة. ونحن نعلم ان الكَيس هو العقل؛ ولكن لو وصفت رجلًا فقلت: «انه لعاقل!» كنت مدحته عند الناس. وان قلت: «انه لكَيِس!» كنت قد قصرت به عن وصفه، وصغرت من قدره، إلّا عند اهل العلم باللغة. لان العامة لا تلتفت الى معنى الكلمة، ولكن الى ما جرت به العادة من استعمالها في الظاهر.

اختيار الالفاظ

فتخيَّر من الالفاظ ارجحها لفظاً، واجزلها، واشرفها جوهراً، واكرمها واليقها في مكانها، واشكلها في موضعها. فان حاولت صنعة رسالة، فزن اللفظة، قبل ان تخرجها، بميزان التصريف اذا عرضت؛ وعاير

الكلمة بعيارها اذا سنحت. فانه ربما مرَّ بك موضع يكون فيه مخرج الكلام اذا كتبتَ: «انا فاعل...» أحسن من ان تكتب: «انا افعل..» وموضع يكون فيه «استفعلت» احلى من «فعلت». فأدِر الكلام على اعكانه (١)، وقلّبه على جميع وجوهه. ولا تجعل اللفظة قَلِقة في موضعها نافرة عن مكانها؛ فانك، متى فعلت، هجنت الموضع الذي حاولت تحسينه، وافسدت المكان الذي اردت اصلاحه. فان وضع الالفاظ في غير اماكنها، وقصدك بها الى غير مصابها، انما هو كترقيع الثوب الذي لم تتشابه رقاعه، ولم تتقارب اجزاؤه، وخرج من حدّ الجدة، وتغيّر حسنه، كما قال الشاعر:

ان الجديد، اذا ما زيد في خلقٍ، يبين للناس ان الثوب مرقوعُ!

كذلك كلما احلولى الكلام، وعذب وراق، وسهلت مخارجه، كان اسهل وارجى في الاسماع، واشد اتصالاً بالقلوب، واخف على الافواه. لاسيما ان كان المعنى البديع مترجماً بلفظ مؤنق شريف، ومعايراً بكلام عذب لم يسِمْه التكليف بميسمه، ولم يفسده التعقيد باستهلاكه.

تضمين الاسرار في الكتب

ان اللطيف من ذلك ان تأخذ لبناً حليباً فتكتب به في القرطاس، فيذرّ المكتوب له عليه رماداً سخناً من رماد القراطيس، فيظهر ما كتبت به، ان شاء الله. وان شئت، كتبت بماء الزاج الابيض، فاذا وصل الى المكتوب اليه، امرَّ عليه شيئاً من غبار الزاج. وان احببت ان لا يُقرأ الكتاب بالنهار ويُقرأ بالليل، فاكتبه بمرارة السلحفاة.

---

١) اعكانه: اي على مواضعه وطرقه

١٥

كتاب العسجدة الثانية

في الخلفاء وتواريخهم واخبارهم

لما كان هذا الفصل تاريخياً يقف عليه المطالع في الكتب المختصة بالتاريخ، فلا تبدو فائدة كبيرة من سرد بعض حوادثه دون بعض، رأينا الّا نذكر منه سوى اسماء الخلفاء وسني ملكهم

محمد صاحب الشريعة الاسلامية (— ١٠ هـ) (٥٧١—٦٣٢ م)

الخلفاء الراشدون

١ — ابو بكر الصديق (١٠ — ١٣ هـ) (٦٣٢ — ٦٣٤ م)

٢ — عمر بن الخطاب (١٣ — ٢٣ هـ) (٦٣٤ — ٦٤٤ م)

٣ — عثمان بن عفان (٢٣ — ٣٥ هـ) (٦٤٤ — ٦٥٦ م)

٤ — علي بن ابي طالب [١] (٣٥ — ٤٠ هـ) (٦٥٦ ٦٦١ م)

٥ — الحسن بن علي (٤٠ — ٤١ هـ) (٦٦١ — ٦٦٢ م)

تنازل عن الخلافة لمعاوية

---

١) خصصنا العدد الاول من « الروائع » بعلي بن ابي طالب، وشرحنا حوادثه مع معاوية شرحاً وافياً، فليُراجع

الخلفاء الامويّون

السفيانيون

١ — معاوية بن ابي سفيان (٤١ — ٦٠ هـ) (٦٦٢ — ٦٨٠ م)

٢ - يزيد بن معاوية (٦٠ - ٦٤ هـ) (٦٨٠ - ٦٨٣ م)

٣ — معاوية الثاني ابن يزيد (٦٤--٦٤ هـ)(٦٨٣ — ٦٨٣ م)

فتنة ابن الزبير (٦٤ - ٦٤ هـ) (٦٨٣--٦٨٣ م)

المروانيون

٤ — مروان بن الحكم (٦٤—٦٥ هـ) (٦٨٣--٦٨٤ م)

٥ - عبد الملك بن مروان (٦٥—٨٦ هـ) (٦٨٤—٧٠٥ م)

٦ — الوليد بن عبد الملك (٨٦—٩٦ هـ) (٧٠٥—٧١٥ م)

٧ — سليمان بن عبد الملك (٩٦—٩٩ هـ) (٧١٥—٧١٧ م)

٨ — عُمر بن عبد العزيز (٩٩—١٠١ هـ) (٧١٧—٧٢٠ م)

٩ - يزيد الثاني ابن عبد الملك (١٠١—١٠٥ هـ) (٧٢٠—٧٢٤ م)

١٠ — هشام بن عبد الملك (١٠٥—١٢٥ هـ) (٧٢٤—٧٤٢ م)

١١ — الوليد الثاني ابن يزيد (١٢٥—١٢٦ هـ) (٧٤٢—٧٤٣ م)

١٢ — يزيد الثالث «الناقص» (١٢٦ - ١٢٦ هـ) (٧٤٣ - ٧٤٤ م)
ابن الوليد بن عبد الملك

١٣ — ابراهيم «المخلوع» (١٢٦—١٢٦ هـ) (٧٤٤—٧٤٤ م)
ابن الوليد بن عبد الملك، خلعه مروان بن محمد

١٤ — مروان «الحمار» (١٢٦—١٣٢ هـ) (٧٤٤—٧٥٠ م) وهو
مروان بن محمد آخر خلفاء بني امية

خلفاء بني امية بالاندلس

١ — عبد الرحمن بن معاوية بن هشام (١٣٨—١٧٢هـ) (٧٥٥—٧٨٨) وهو المعروف «بصقر قُريش»

٢ - هشام بن عبد الرحمن (١٧٢ — ١٨٠هـ) (٧٨٨ — ٧٩٦)

٣ — الحَكَم بن هشام (١٨٠ — ٢٠٦هـ) (٧٩٦ — ٨٢١)

٤ — عبد الرحمن بن الحَكَم (٢٠٦ — ٢٣٨هـ) (٨٢١ — ٨٥٢)

٥ — محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ — ٢٧٣هـ) (٨٥٢ — ٨٨٦)

٦ — المنذر بن محمد (٢٧٣ — ٢٧٥هـ) (٨٨٦ — ٨٨٨)

٧— عبد الله بن محمد (٢٧٥ — ٣٠٠ هـ) (٨٨٨ — ٩١٢)

٨— عبد الرحمن بن محمد (٣٠٠ —) (٩١٢ —)

ولابن عبد ربه فيه المدائح الكثيرة، منها ارجوزته الطويلة؛ وهي اول مثال للشعر القصصي في الأدب العربي (١ وصف فيها ٢١ غزوة قام بها الامير عبد الرحمن المذكور. وذلك على الطريقة التوقيتية من سنة ٣٠٠ الى سنة ٣٢٢ هـ. (٩١٢ — ٩٣٣). والقصيدة تحتوي على نحو من ٤٤٥ بيتًا اولها:

سبحان من لم تحوهِ اقطارُ ! ولم تكن تدركه الابصارُ !

ومن عنت لوجهه الوجوه، فما له ندٌّ، ولا شبيهُ !

ومنها في وصف معركة اثناء الغزوة السادسة (سنة ٣٠٦ هـ. = ٩١٨)

فاقبَلوا، باعظم الطغيان، قد جللوا الجبال بالفرسانِ،

حتى تداعى الناس، يومَ السبتِ؛ فكان وقتاً يا لـه من وقت !

---

١) راجع ما قلناه عنها في المقدّمة (ص: هـ. ي)

فاشرعت بينهم الرماحُ ، وقد علا التكبيرُ والصياحُ ،
وفارقت اغمادَها السيوفُ ، وفغرت افواهها الحتوفُ ،
والتقت الرجالُ بالرجالِ وانغمسوا في غمرة القتالِ ،
في موقفٍ زاغت به الابصارُ وقصرت في طوله الاعمارُ .

وختمها بقوله ، والضمير عائد الى الخليفة عبد الرحمن بن محمد المذكور :

ثم مضى بالعزّ والتمكينِ ، وناصراً لاهل هذا الدينِ
في جملة الرايات والعساكرِ ، وفي رجال الصبر والبصائرِ
الى عدى الله ، من الخلائقِ ، وعابدي المخلوق دون الخالقِ ؛
فدمّروا السهول والقلاعا ، وهتكوا الزروع والرباعا ،
وخربوا الحصون والمدائنا ، واقفدوا ، من اهلها ، المساكنا .
فليس في الديار من ديار ولا بها من نافخ للنار ،
فغادروا عمرانها خرابا وبدّلوا ربوعها يبابا ،
وبالقلاع احرقوا الحصونا ، واسخنوا من اهلها العيونا .
ثم ثنى الامام من عنانه ، وقد شفى الشجيَّ من اشجانه
وامَّن القفار من انجاسها وطهَّر البلادَ من ارجاسها .

١٦

كتاب اليتيمة الثانية

في اخبار زياد، والحجاج، والطالبيين والبرامكة

من اخبار زياد

قالوا: الدهاة اربعة: معاوية للروية، وعمرو بن العاص للبديهة، والمغيرة للمعضلات، وزياد لكل صغيرة وكبيرة.

. . .

لما عزل عمر بن الخطاب (رضه) زياداً عن كتابة ابي موسى، قال له: «أعن عجز ام عن خيانة؟» قال: «لا عن واحدة منهما، ولكني كرهت ان احمل على العامة فضل عقلك!»

من اخبار الحجاج

كتب الوليد الى الحجاج ان صف لي سيرتك، فكتب اليه: «اني يقظت رأيي، واغنت هواي. فادنيت السيد المطاع في قومه، ووليت الحرب الحازم في امره، وقلدت الخراج الموفر لامانته، وصرفت السيف

الى المسيء النطق ، فخاف المريب صولة العقاب ، وتمسك المحسن بحظه من الثواب . »

وقد اوردنا شيئاً من خطب زياد والحجاج في كتاب الخطب ، فليُراجع .

من اخبار البرامكة

قال سهل بن هرون : اني لاحصل ارزاق العامة ، بين يدى يحيي بن خالد ، في بناء خلا به داخل سرادقه ، وهو مع الرشيد بالرقة ؛ وهو يعقد بها جملًا بكفه اذ غشيته سآمة . واخذته سِنة ، فغلبته عيناه . فقال : « ويحك يا سهل ، طرق النوم شُفري (١) ، واكلت السِنة خواطري ، فما ذلك ؟ » قلت : « ضيف كريم ، ان قرّبته روّحك ، وان منعته عنّتك ، وان طردته طلبك ، وان اقصيته ادركك ، وان غالبته غلبك . » (قال) فنام اقل من فُواق بكية (٢) ، او نزع ركيّة (٣) ؛ ثم انتبه مذعورًا ، فقال : « ياسهل لامر ما كان . والله ، لقد ذهب ملكنا ، وولّى عزّنا ، وانقضت ايام دولتنا . » قلت : « وما ذاك ؟ اصلح الله الوزير ! » قال : « كأنّ منشدًا انشدني

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا انيسٌ ، ولم يسمر بمكة سامرُ

« فاجبته من غير روية ولا اجالة فكر :

---

١) الشُفْر : اصل منبت الشعر في حرف الجفن

٢) الفُواق : ترجيع الشهقة الغالبة ، ويعرف عند العامة « بالحازوقة » . البكية : المرأة الكثيرة البكاء . والمقصود بهذا التعبير ، قصر الوقت

٣) الركية : البئر ذات الماء — والمقصود بهذا التعبير ايضاً ، قصر الوقت

« بلى ! نحن كنا اهلها ، فابادنا صروف الليالي، والجدود العواثرُ !»

(قال) فوالله ما زلت اعرفها منه ، واراها ظاهرة فيه ، الى الثالث من يومه ذلك . فاني لفي مقعدي بين يديه ، اكتب توقيعات في اسافل كتبه لطلّاب الحاجات اليه ، قد كلفني اكمال معانيها باقامة الوزن فيها ، اذ وجدت رجلاً سعى اليه حتى ارتمى مكباً عليه . فرفع راسه ، فقال : « مهلاً ويحك ! ما اكتتم خير ، ولا استتر شرّ !» قال : « قتل امير المؤمنين جعفر ، الساعة ! » قال : «أوَ قد فعل؟» قال : «نعم !»(قال) فما زاد على ان رمى القلم من يده ، وقال : «هكذا تقوم الساعة بغتة !»

. . .

من قول سليمان الاعمى في رثاء البرامكة :

أَأَلهو ، بعدكم ، واقرُّ عيناً؟ عليَّ اللهو ، بعدكمُ ، حرامُ !

وكيف يطيب لي عيشٌ ، وفضلٌ أسيرٌ ، دونه البلدُ الشآمُ ؟

وجعفر تاوياً بالجسر ، أبلت محاسنه السمائم والقتامُ ؟ (١

امرّ بـه ، فيغلبني بكائي ؛ ولكن البكاء له اكتتامُ !

اقول ، وقمت منتصباً اليه الى ان كاد يفضحني القيام :

اما ، واللهِ ، لولا خوف واشٍ وعين الخليفة لا تنام ،

لثمنا ركن جذعك ، واستلمنا، كما للناس بالحجر استلام !

---

١) السمائم : جمع سموم وهي الريح الحارة

من اخبار الطالبين

قال معاوية يوماً لجلسائه: «من اكرم الناس اباً واماً، وجداً وجدةً، وعماً وعمة، وخالاً وخالة؟» فقالوا: «امير المؤمنين اعلم!» فاخذ بيد الحسن بن علي، وقال: «هـذا! ابوه علي بن ابي طالب وامه فاطمة ابنة محمد، وجده رسول الله (صلعم) وجدته خديجة، وعمه جعفر وعمته هالة بنت ابي طالب، وخاله القاسم بن محمد، وخالته زينب بنت محمد (صلعم)!»

. . .

حدث الرياشي قال: انتقص ابن حمزة بن عبد الله بن الزبير علياً، فقال له ابوه: «يا بني، انه، والله، ما بنت الدنيا شيئاً الا هدمه الدين. وما بنى الدين شيئاً فهدمته الدنيا. اما ترى علياً، وما يظهر بعض الناس من بغضه، ولعنه على المنابر! فكأنما والله يأخذون بناصيته رفعاً الى السماء! وما ترى بني مروان، وما يندبون به موتاهم من المدح بين الناس! فكأنما يكشفون عن الجيف!»

ذكر خلفاء بني العباس

١ — ابو العباس السفاح (١٣٢-١٣٦هـ) (٧٥٠—٧٥٤م)
٢ — ابو جعفر المنصور (١٣٦—١٥٨هـ.) (٧٥٤—٧٧٥) اخو السفاح
٣ — محمد المهدي (١٥٨—١٦٩هـ.) (٧٧٥—٧٨٥) ابن المنصور
٤ — موسى الهادي (١٦٩—١٧٠هـ.) (٧٨٥—٧٨٦) ابن المهدي

٥ —هرون الرشيد (١ (١٧٠—١٩٣هـ.) (٧٨٦—٨٠٩) ابن المهدي

٦ — محمد الامين (١٩٣—١٩٨هـ.) (٨٠٩-٨١٣) ابن الرشيد ، قتله المأمون

٧ — عبد الله المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ.) (٨١٣—٨٣٣) ابن الرشيد

٨ — المعتصم بالله (٢١٨—٢٢٧هـ.) (٨٣٣-٨٤٢) ابن الرشيد ، ويُعرف « بالمثمّن » (٢

٩ — الواثق بالله (٢٢٧—٢٣٢هـ.) (٨٤٢—٨٤٧) ابن المعتصم

١٠— المتوكل على الله (٢٣٢—٢٤٧هـ.) (٨٤٧—٨٦١) ابن المعتصم

١١— المنتصر بالله (٢٤٧—٢٤٨هـ.) (٨٦١—٨٦٢) ابن المتوكل

١٢— المستعين بالله (٢٤٨—٢٥٢هـ.) (٨٦٢—٨٦٦) ابن محمد بن المعتصم ، خلع نفسه

١٣— المعتز بالله (٢٥٢- ٢٥٥هـ.) (٨٦٦—٨٦٩) ابن المتوكل

١٤— المهتدي بالله (٢٥٥—٢٥٦هـ.) (٨٦٩—٨٧٠) ابن الواثق

١٥— المعتمد على الله (٢٥٦—٢٧٩هـ) (٨٧٠- ٨٩٢) ابن المتوكل

١٦— المعتضد بالله (٢٧٩—٢٨٩هـ.) (٨٩٢—٩٠٢) ابن الموفق

---

١) بويع للرشيد الجمعة في ١٤ ربيع الاول ١٧٠ هـ؛ يوم موت الهادي ؛ وفي تلك الليلة وُلد عبد الله المأمون . فكانت تلك الليلة فريدة : مات فيها خليفة، وقام خليفة، ووُلد خليفة

٢) ذكر الصولي : انه كان يسمّى « المثمّن » ، وذلك انه الثامن من خلفائهم : ومولده سنة ثمان وسبعين ومائة، وولي الامر في سنة ثماني عشرة ومائتين ومات وله ثمان واربعون سنة . وكانت خلافته ثماني سنين وثمانية اشهر . ورزق من الوُلد الذكور ثمانية، ومن الاناث ثمانياً . وغزا ثماني غزوات، وخلف في بيت ماله ثمانية آلاف الف دينار، ومن الورق ثمانية آلاف الف درهم

١٧— المكتفي بالله (٢٨٩—٢٩٥هـ.) (٩٠٢—٩٠٨) ابن المعتضد

١٨— المقتدر بالله (٢٩٥—٢٩٥هـ.) (٩٠٨—٩٠٨) ابن المعتضد، خلعه الجند وبايعوا ابن المعتزّ

١٩— ابن المعتزّ (٢٩٥—٢٩٥هـ.) (٩٠٨—٩٠٨) ملك يوماً واحداً، ثم قتله المقتدر

المقتدر ثانيةً (٢٩٥—٣١٦هـ.) (٩٠٨—٩٢٨) خلع نفسه واجلس القاهر

القاهر بالله (٣١٦—٣١٦هـ.) (٩٢٨—٩٢٨) ابن المعتضد، ملك يومين ثم عاد المقتدر

المقتدر ثالثة (٣١٦—٣٢٠هـ.) (٩٢٨—٩٣٢)

٢٠— القاهر ثانية (٣٢٠—٣٢٢هـ.) (٩٣٢—٩٣٤) خلع وسُمل

٢١— الراضي بالله (٣٢٢- ٣٢٩هـ.) (٩٣٤—٩٤٠) ابن المقتدر

لم نتابع ذكر من ذُكر في العقد الفريد بعد الراضي من خلفاء بني العباس، لانه لم يكن لابن عبد ربه ان يذكرهم، وهو توفي سنة ٣٢٨ هـ. (٩٤٠). على اننا رأينا ذكر سائر الخلفاء العباسيين على سبيل الفائدة التاريخية:

٢٢— المتقي بالله (٣٢٩—٣٣٣) (٩٤٠—٩٤٤) ابن المقتدر، خلع وسُمل

٢٣— المستكفي بالله (٣٣٣—٣٣٤) (٩٤٤-٩٤٦) خلع

٢٤— المطيع لله (٣٣٤—٣٦٣) (٩٤٦—٩٧٤) ابن المقتدر

٢٥— الطائع لله (٣٦٣—٣٨١) (٩٧٤—٩٩١) ابن المطيع

٢٦— القادر بالله (٣٨١-٤٢٢) (٩٩١—١٠٣١)

٢٧— القائم بامرالله (٤٢٢—٤٦٧) (١٠٣١—١٠٧٥) ابن القادر

٢٨— المقتدي بالله (٤٦٧—٤٨٧) (١٠٧٥—١٠٩٤) حفيد القائم

٢٩– المستظهر بالله (٤٨٧–٥١٢) (١٠٩٤–١١١٨) ابن المقتدي

٣٠– المسترشد بالله (٥١٢–٥٢٩) (١١١٨–١١٣٥) ابن المستظهر

٣١– الراشد (٥٢٩–٥٣٠) (١١٣٥–١١٣٦) ابن المسترشد

٣٢– المقتفي لامر الله (٥٣٠–٥٥٥) (١١٣٦–١١٦٠) ابن المستظهر

٣٣– المستنجد بالله (٥٥٥–٥٦٦) (١١٦٠–١١٧٠) ابن المقتفي

٣٤– المستضيء بالله (٥٦٦–٥٧٥) (١١٧٠–١١٨٠) ابن المستنجد

٣٥– الناصر لدين الله (٥٧٥–٦٢٢) (١١٨٠–١٢٢٥) ابن المستضيء

٣٦– الظاهر بامر الله (٦٢٢–٦٢٣) (١٢٢٥–١٢٢٦) ابن الناصر

٣٧– المستنصر بالله (٦٢٣–٦٤٠) (١٢٢٦–١٢٤٢) ابن الظاهر

٣٨– المستعصم بالله (٦٤٠–٦٥٦) (١٢٤٢–١٢٥٨) ابن المستنصر

١٧

كتاب الدرة الثانية

في ايام العرب ووقائعها

قــال بعضهم : وددت لو ان لنا، مع اسلامنا، كرم اخلاق آبائنا في الجاهلية ! الا ترى ان عنترة الفوارس جاهلي لا دين له، والحسن بن هانئ اسلامي له دين، فمنع عنترة كرمه ما لم يمنع الحسن بن هانئ دينه، فقال عنترة :

واغضُّ طرفي، ان بدت لي جارتي، حتى يواري جارتي، مأواها.

وقال الحسن بن هانئ، مع اسلامه :

كان الشبابُ مطية الجهل ومحسّن الضحكات والهزلِ

. . .

قيــل لبعض اصحاب رسول الله (صلعم) : « ما كنتم تتحدثون به، اذا خلوتم في مجالسكم ؟ » قــال : « كنا نتناشد الشعر، ونتحدث باخبار جاهليتنا ! ».

ويلي ذلك تفصيل ايام العرب الجاهليين وانتصاراتهم، بعضهم على بعض، مما يضيق عن استيعابه نطاق هذه المنتخبات، فضلًا عن ان المطالع يراه في الكتب المختصة باخبار العرب

١٨

كتاب الزمرّدة الثانية

في فضائل الشعر، ومقاطعه، ومخارجه

الشعر ديوان خاصّة العرب، والمنظوم من كلامها، والمقيّد لايامها، والشاهد على حكامها. حتى لقد بلغ من كلف العرب به، وتفضيلها له ان عمدت الى سبع قصائد خيرتها من الشعر القديم، فكتبتها بماء الذهب، في القباطي المدرجة، وعلقتها في استار الكعبة. فمنه يقال: مذهّبة امرئ القيس ومذهّبة زهير... والمذهّبات سبع، وقد يقال لها « المعلّقات »(١).

اشعر الشعراء

اختلف الناس في اشعر الشعراء. قال النبي (صلعم)، وذُكر عنده امرؤ القيس بن حُجر: « هو قائد الشعراء، وصاحب لوائهم! ».

قال عمر لابن عباس: « انشدني لاشعر الناس الذي لا يُعاظل في القوافي، ولا يتبع حوشي الكلام». قال: « مَن ذلك؟ يا امير المؤمنين» قال: « زهير بن ابي سُلمى » فلم يزل ينشد، من شعره حتى اصبح.

---

١) راجع ما قلناه عن المعلّقات، وعن هذا الزعم في المجلد الثاني من «الروائع» في الشعر الجاهلي —ص: ٩، وفي المجلد السابع – امرؤ القيس — (ص: ن)

وقيل لبعض الشعراء: « من اشعر الناس؟ ». قال: «النابغة اذا رهب، وزهير اذا رغب، وجرير اذا غضب.»

وقال ابو عمرو بن العلاء: « طرفة اشعرهم واحدة!» يعني قصيدته: « لخولة اطلال ببرقة تهمدِ» وفيها يقول:

ستبدي لك الايام ما كنت جاهلًا   ويأتيك بالاخبار من لم تزوّدِ

سُئل الاصمعي عن شعر النابغة فقال: « ان قلت الين من الحرير صدقت، وان قلت اشد من الحديد صدقت!».

وسُئل حماد الراوية عن شعر ابن ابي ربيعة، فقال: « ذاك الفستق المقشر الذي لا يُشبع منه!».

ويقال ان ابدع بيت قالته العرب قول ابي ذؤيب الهذلي:

والنفس راغبة، اذا رغبتها،   واذ تردُّ الى قليلٍ، تقنعُ

ويقال ان اصدق بيت قالته العرب قول لبيد:

الا كل شيء، ما خلا الله، باطلُ!   وكل نعيم، لا محالة، زائلُ!

قولهم في المدح

دخل ابن هَرِم بن سنان على عمر بن الخطاب، فقال له: «من انت؟» قال: « انا ابن هرم بن سنان» قال: « صاحب زُهير؟» قال: « نعم!» قال: « اما انه كان يقول فيكم فيُحسن!» قال: « كذلك كنا نعطيه فنُجزل!» قال: « ذهب ما اعطيتموه، وبقي ما اعطاكم!».

قولهم في الهجاء

قال عبد الملك بن مروان: « ما هجاني احد باوجع من بيت هجاني به ابن الزبير، وهو:

فان تصبك، من الايام، جائحة لم نبك منك على دنيا ولا دين

وقالوا: اهجى بيت قالته العرب قول الطرماح بن حكيم:

تميم، بطرق اللؤم، اهدى من القطا! ولو سلكت سبل المكارم، ضلت

ولو ان برغوثاً على ظهر قملة رأته تميم، يوم زحف، لولت

ولو ان عصفوراً يمد جناحه، لقامت تميم تحته واستظلت

باب في رواة الشعر

قال الاصمعي: « ما بلغت الحلم حتى رويت اثني عشر الف ارجوزة للاعراب».

وكان خلف الاحمر اروى الناس للشعر، واعلمهم بجيده. وكان، مع روايته وحفظه، يقول الشعر فيحسن وينحله الشعراء. ويقال ان الشعر المنسوب الى ابن اخت تأبط شرا، وهو:

ان بالشعب، الى جنب سلع، لقتيلاً دمه ما يطل،

لخلف الاحمر، وانما ينحله اياه. وكذلك كان يفعل حماد الرواية، يحقق الشعر القديم ويقول: « ما من شاعر الا قد حققت في شعره ابياتاً، فجازت عنه؛ الا الاعشى، اعشى بكر، فاني لم ازد في شعره قط غير بيت».

قيل له: « وما البيت؟» فقال:

وانكرتني، وما كان الذي نكرت   من الحوادث، الا الشيبَ والصلعا !

وكان الخليل بن احمد اروى الناس للشعر ولا يقول بيتاً ؛ وكذلك كان الاصمعي . وقيل للاصمعي : «ما يمنعك من قول الشعر ؟» قال : «نظري لجيّده .» وقيل للخليل : « مالك لا تقول الشعر ؟» قال : «الذي اريده لا اجده ، والذي اجده منه لا اريده !»

قال دعبل :

يموت ردئ الشعر ، من غير اهله ،   وجيّده يبقى ، وان مات قائله .

اي بيت تقوله العرب اشعر

قيل لابي عمرو بن العلاء : «اي بيت ، تقوله العرب ، اشعر ؟» قال : « البيت الذي اذا سمعه سامعه ، سوّلت له نفسه ان يقول مثله ؛ ولأن يخدش انفه بظفر كاب ، أهونُ عليه من ان يقول مثله !»

وقيل للاصمعي : « اي بيت ، تقوله العرب ، اشعر ؟» قال : «الذي يُسابق لفظه معناه !»

وقيل للخليل : «اي بيت ، تقوله العرب ، اشعر ؟» قال : « البيت الذي يكون في اوله دليل على قافيته !» .

واحسن من هذا كله قول زهير :

وان احسن بيت ، انت قائله ،   بيتٌ ، يقال اذا انشدته : «صدقا !»

أحسن ما يُجتلب به الشعر

اقوى ما يكون الشعر، عندي، على قدر اسباب الرغبة والرهبة · قيل للخريمي: «ما بال مدائحك لمحمد بن منصور احسن من مراثيك ؟» قال: «كنا حينئذٍ نعمل على الرجاء، ونحن اليوم نعمل على الوفاء، وبينهما بون بعيد!» والدليل على صحة هذا المعنى، وصدق هذا القياس، ان كثيّر عزة والكميت بن زيد، كانا شيعيين غاليين في التشيّع، وكانت مدائحهم في بني امية اشرف واجود منها في بني هاشم · وما لذلك علة الا قوة اسباب الطمع ·

من رفعه المدح ووضعه الهجاء

قد يكون الشيء مدحاً فيجعله الشعر ذماً، ويكون ذماً فيجعله الشعر مدحاً · الا ترى الى بني عبد المدان الحارثيين، كانوا يفخرون بطول اجسامهم، وقديم شرفهم، حتى قال فيهم حسّان:

لا بأس بالقوم من طولٍ ومن غلظٍ: جسم البغال، واحلام العصافيرِ!

وكان بنو انف الناقة يعيّرون بهذا الاسم، في الجاهلية، حتى قال فيهم الحطيئة:

قوم هم الانف، والاذناب غيرهم، ومن يساوي بانف الناقة الذنبا!

فعاد هذا الاسم فخرًا لهم، وشرفاً فيهم

باب ما أُدرك على الشعراء

أُخذ على النابغة في وصف السيف قوله :

يقد السلوقي المضاعف نسجه ، ويوقد ، بالصفّاح ، نارَ الحباحبِ

فزعم انه يقدّ الدرع المضاعفة ، والفارس ، والفرس ، ثم يقع في الارض فيقدح النار من الحجارة . وهذا من الافراط القبيح .

ومما أُدرك على طرفة قوله :

اسد غيلٍ ، فاذا ما شربوا ، وهبوا كل أمونٍ وطِمِرْ (١

ثم راحوا ، عبق المسك بهم ، يلحفون الارض هدّاب الأُزُر

فذكر انهم يعطون ، اذا سكروا ، ولم يشترط لهم ذلك ، اذا صحوا كما قال عنترة :

واذا شربت ، فانني مستهلك ما لي ، وعرضي وافرٌ لم يكلمِ ؛

واذا صحوت ، فما اقصر عن ندى ، وكما علمتِ ، شمائلي وتكرّمي

نوادر الشعر

قال هرون الرشيد المفضل الضبي : « انشدنا بيتاً اوله اعرابي ، في شملته ، هبّ من نومته ، وآخره مدني رقيق غذي بماء العقيق ! » قال المفضل : «هوّات عليّ يا امير المؤمنين !» قال هرون : «هو بيت جميل حيث يقول :

---

١) الأَمُون : المطية الموثقة الخلق ، المأمونة الكلال . الطمر : القرس الجواد ، المستعد للعدو

الا ايها النوَّام ، ويحكم اهبّوا ! اسائلكم: « هل يقتل الرجلَ الحبُّ ؟ »

فقال له المفضل : « فاخبرني ، يا اميرَ المؤمنين ، عن بيت اوله اكثم بن صيفي في اصابة الرأي ، وآخره بقراط الطبيب في معرفته بالداء والدواء . » قال له هرون : « ما هو ؟ » قال : « هو بيت الحسن بن هانئ حيث يقول :

دع عنك لومي ، فان اللوم إغراء ! وداوني بالتي كانت هي الداء . »

مدعي الشعر وبشّار

كان رجل يدَّعي الشعر ، ويستبرده قومه . فقال لهم : « انما تستبردوني من طريق الحسد ! » قالوا : « فبيننا وبينك بشّار العقيلي . » فارتفعوا اليه . فقال له : « انشدني » فانشده . فلما فرغ قال له بشار : « اني لأظنك من اهل بيت النبوَّة ! » قال له : « وما ذلك ؟ » قال : « ان الله تعالى يقول : « وما علمناه الشعر ، وما ينبغي له . . . » (١ فضحك القوم ، وخرجوا عنه .

باب من الشعر يخرج معناه في المدح والهجاء

قال الشاعر في خياط اعور يسمى عمروًا

خاط لي عمرو قباء ؛ ليت عينيه سواء !

فاسأل الناس جميعاً : أمديح ام هجاء ؟

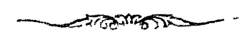
باب من مقاطع الشعر ومخارجه

أعلم بانك متى نظرت بعين الانصاف ، وقطعت بحجة العقل ، علمت

١) القرآن : سورة يس : ٦٩

ان لكل ذي فضل فضله ، ولا ينفع المتقدم تقدّمه ، ولا يضرّ المتأخر تأخره . . .

واعلم انه لا يصلح لك شيء، من المنثور والمنظوم، الا ان تجري منه على عرف وان تتمسك منه بسبب . فاما، ان كان غير مناسب لطبيعتك ، وغير ملائم لقريحتك ، فلا تمضِ مطيتك في التماسه ، ولا تتعب نفسك الى انبعاثه ، باستعارتك الفاظ الناس وكلامهم . فان ذلك غير مثمر لك ، ولا مجدٍ عليك ، ما لم تكن الصناعة ممازجة لذهنك ، وملتحمة بطبعك . واعلم ان من كان مرجعه اغتصاب نظم من تقدَّمه ، واستضاءته بكوكب من سبقه ، وسحب ذيل حلة غيره ؛ ولم تكن معه اداة تولد له من بنات ذهنه، ونتائج فكره ، الكلامَ الجزم ، والمعنى الجزل ، لم يكن من الصناعة في عير ولا نفير ، ولا ورد ولا صدر . على ان سماع كلام الفصحاء المطبوعين، ودرس رسائل الشعراء من المتقدمين ، هو، على كل حال، مما يفتق اللسان ، ويقوي البيان ، ويحدّ الذهن ، ويستخدم الطبع ، ان كانت فيه بقية ، وهناك خبيَّة .



١٩

ويلي هذا الكتاب الكتاب التاسع عشر ، وهو كتاب الجوهرة الثانية في اعاريض الشعر وعلل القوافي مما يراه المتأدب في كتب العروض ، فضربنا عن ذكره صفحاً .

٢٠

كتاب الياقوتة الثانية

في علم الالحان، واختلاف الناس فيه

فعل الصوت الحسن

زعم اهل الطب ان الصوت الحسن يسري في الجسم، ويجري في العروق، فيصفو له الدم، ويرتاح له القلب، وتنمو له النفس، وتهتزّ الجوارح، وتخفّ الحركات. ومن ذلك كرهوا للطفل ان ينوم على اثر البكاء، حتى يرقص ويطرب.

وزعمت الفلاسفة ان النغم فضل بقي من المنطق، لم يقدر اللسان على استخراجه؛ فاستخرجته الطبيعة بالالحان.

ويلي هذا بحث في اختلاف الناس في الغناء وتحريم البعض له على طريقة الغلوّ في الدين. وهنا يميل المؤلف الى تحليله والانتفاع به. ويتبع ذلك بحث في اصل الغناء، ثم بطائفة من اخبار المغنّين والقيان.

٢١

كتاب المرجانة الثانية

في النساء وصفاتهن

في حكمة سليمان بن داود، عليهما السلام: « المرأة العاقلة تبني بيتها، والسفيهة تهدمه. »

خطب عمرو بن حجر الى عوف بن محلم الشيباني ابنته ام اياس، فقال: «نعم...» ثم خلت بها امها فقالت: « اي بنيّة، انك فارقتِ بيتك الذي منه خرجت، وعشك الذي فيه درجت، الى رجل لم تعرفيه، وقرينٍ لم تألفيه. فكوني له امةً يكن لك عبداً؛ واحفظي له خصالاً عشراً يكن لكِ ذخراً: اما الاولى والثانية: فالخشوع له بالقناعة، وحسن السمع له والطاعة. واما الثالثة والرابعة: فالتفقّد لموضع عينه وانفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشمّ منك الا اطيب ريح. واما الخامسة والسادسة: فالتفقّد لوقت منامه وطعامه، فانّ تواتر الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة. واما السابعة والثامنة: فالاحتراس بماله، والإرعاء على حشمه وعياله، وملاكُ الامر في المال حسن التقدير، وفي العيال حسن التدبير. واما التاسعة والعاشرة: فلا تعصينّ له امراً، ولا تفشينّ له سرّاً. فانك ان خالفت امره اوغرت صدره؛ وان افشيت سرّه لم تأمني غدره. ثم اياك والفرح بين يديه

اذا كان مهتمًّا ، والكآبة بين يديه ، اذا كان فرحاً .» فولدت له الحرث ابن عمرو ، جد امرئ القيس الشاعر .

صفات النساء ، واخلاقهنّ

قال ابو عمرو بن العلاء : اعلم الناس بالنساء عبدة بن الطبيب حيث يقول :

فان تسألوني بالنساء ، فانني عليم بادواء النساء ، طبيبُ :
اذا شاب رأس المرء ، او قلّ ماله ، فليس له ، من ودهنّ ، نصيبُ

باب الطلاق

قال الاصمعي للرشيد ، في بعض احاديثه : بلغني ، يا امير المؤمنين ، ان رجلاً من العرب طلّق ، في يوم ، خمس نسوة . قال : « انما يجوز ملك الرجل على اربع نسوة . فكيف طلق خمساً ؟ » قال : « كان لرجل اربع نسوة ، فدخل عليهن يوماً ، فوجدهنّ متلاحيات ، متنازعات . وكان شنظيراً (١) . فقال : « الى متى هذا التنازع ؟ ما اخال هذا الامر الا من قِبلك . » يقول ذلك لامرأة منهنّ — « اذهبي ، فانت طالق ! » فقالت له صاحبتها : « عجلت عليها بالطلاق . ولو ادّبتها بغير ذلك ، لكنت حقيقاً . » فقال لها : « وانت ايضاً طالق ! » فقالت له الثالثة : « قبّحك الله ! فوالله ، لقد كانتا اليك محسنتين ، وعليك مفضلتين ! » فقال : « وانتِ ايتها المعدّدة اياديها ، طالق

(١) الشنظير : السيء الخُلق

ايضاً ! » فقالت له الرابعة ، وكانت هلالية ، وفيها اناة شديدة : « ضاق صدرك عن ان تأدب نسائك الا بالطلاق ؟» فقال لها : «وانت طالق ايضاً ! » وكان ذلك بسمع جارة له ، فاشرفت عليه ، وقد سمعت كلامه ، فقالت : «والله ، ما شهدت العرب عليك وعلى قومك بالضعف ، الا لما بلوه منكم ، ووجدوه فيكم . ابيت الا طلاق نسائك في ساعة واحدة! » قال : « وانت ايضاً ، ايتها المؤنبة المتكلفة ، طالق ، ان اجاز زوجك . » فاجابه من داخل بيته : « قد اجزت ! قد اجزت ! » .

٢٢

كتاب الجمانة الثانية

في المتنبئين، والممرورين، والبخلاء، والطفيليين

من اخبار المتنبّئين

تنبأ انسان، وسمّى نفسه نوحاً، صاحب الفلك، وذكر انه سيكون طوفان، على يديه، الّا من اتبعه. ومعه صاحب له قد آمن بـه وصدّقه. فأُتي به الى الوالي، فاستتابه، فلم يتب. فامر بـه فصُلب، واستتاب صاحبه، فتاب. فناداه من الخشبة: «يا فلان، اتسلمني الآن، في مثل هذه الحالة؟» فقـال: «يا نوح، قد علمت انه لا يصحبـك من السفينة الا الصاري!»

من اخبار الممرورين والمجانين

... ومن نَوْكَى (١ الأشراف معاوية بن مروان. وقف على باب طحان فرأى حمارًا يدور بالرحى، في عنقه جلجل، فقـال للطحان: «لِمَ جعلت الجلجل في عنق الحمار؟» قال: «ربما ادركتني سآمة او نعاس، فاذا لم اسمع صوت الجلجل، علمت انه واقف، فصحت به، فانبعث.» قال:

(١) النوكَى: جمع الأنوَك وهو الاحمق

«أفرأيت ! إن وقف ، وحرّك رأسه بالجلجل ، وقال : هكذا وهكذا ؟ » وحرّك رأسه . فقال له : «ومن لي بحمار يكون عقله مثل عقل الامير ؟»

واقبل اليه قوم من جيرانه ، فقالوا : «مات جارك ابو فلان ، فمُرْ له بكفن .» فقال : «ما عندنا اليوم شيء ، ولكن عودوا الينا . . .»

. . .

قيل لابي عبد الملك عناق : « باي شيء تزعمون ان ابا علي الاسواري افضل من سلام ابي المنذر ؟» قال : « لانه لما مات سلام ابو المنذر ، مشى ابو علي في جنازته . فلما مات ابو علي ، لم يمش سلام في جنازته ! »

طعام البخلاء

قال الاصمعي : كان يقول المروزي لزواره ، اذا اتوه : « هل تغدّيتم اليوم ؟» فان قالوا : نعم ، قال : «والله ، لولا انكم تغدّيتم ، لاطعمتكم لوناً ما اكلتم مثله . ولكن ذهب اول الطعام بشهوتكم .» وان قالوا : لا ، قال : « والله ، لولا انكم لم تتغدّوا ، لسقيتكم اقداحاً من نبيذ الزبيب ما شربتم مثله .» فلا يصير في ايديهم منه شيء .

. . .

قيل لحصين : «أتغدّيت عند فلان ؟» قال : « لا ولكني مررت به يتغدّى .» قيل : «فكيف علمت انه يتغدّى ؟» قال : «رأيت غلمانه ببابه ، في ايديهم قسيّ البندق ، يرمون الذباب في الهواء .»

. . .

قال الهيثم بن عدي : نزل بابي حفصة ضيف باليمامة ، فاخلى له المنزل ، ثم هرب عنه مخـافة ان يلزمه قراه تلك الليلة . فخرج الضيف فاشترى ما يحتاجه . ثم رجع وكتب اليه :

يا ايها الخـارج من بيته ، وهـارباً من شدة الخوف ،
ضيفك قـد جاء بزادٍ له ؛ فارجع تكن ضيفاً على الضيف

من اخبار الطفيليين

اولهم طُفيل العرائس ، واليه نُسب الطفيليون .

ومنهم اشعب الطمّاع . . . وبينا قوم جلوس عنـد رجل من اهل المدينة ، يأكلون عنده حيتاناً ، اذ استاذن عليهم اشعب . فقـال احدهم : «ان من شأن اشعب البسط الى اجل الطعام ، فاجعلوا كبار هذه الحيتان في قصعة بناحية ، ويأكل معنا الصغار . » ففعلوا ، وأُذن له . فقالوا له : «كيف رأيك في الحيتان . ؟» فقال : «والله ، ان لي عليهـا لحردًا شديدًا ، وحنقاً ، لان ابي مات في البحر ، واكلته الحيتان » قـالوا له : « فدونك ، خذ بثأر ابيك . » فجلس ، ومدَّ يده الى حوت منها صغير ، ثم وضعه عند اذنه ، وقد نظر الى القصعة التي فيها الحيتان ، في زاوية المجلس ؛ فقال : « اتدرون ما يقول لي هذا الحوت ؟ » قالوا : « لا ! » قال : «انه يقول انـه لم يحضر موت ابي ، ولا ادركه لان سنه يصغر عن ذلك ولكن قال لي : عليك بتلك الكبار التي في زاوية البيت ، فهي ادركت اباك واكلته . »

دخل طفيلي على قوم يأكلون ، فقال : « ما تأكلون ؟ » فقـالوا ، من بغضه : « سمّاً ! » فادخل يده وقال : «الحياة حرام بعدكم ! . »

٢٣

كتاب الزبرجدة الثانية

في بيان طبائع الانسان، وسائر الحيوان، وتفاضل البلدن

فمن الناس مَن نفسه عصبية، فانما همّه منافسة الاكفاء، ومغالبة الاقران، ومكابرة العشيرة. ومنهم من نفسه ملكية، فانما همّه اليقين في العلوم، وادراك الحقائق، والنظر في العواقب. ومنهم من نفسه بهيمية، فانما همه طلب الراحة، واهتبال النفس على الشهوة.

من طبائع الانسان والحيوان

يعيش الانسان حيث تعيش النار، ويتلف حيث لا تبقى النار. واصحاب المعادن والحفر، اذا هجموا على فتق في بطن الارض او مغارة قدّموا شمعة، في طرف قناة. فان عاشت بالنار وثبتت، دخلوا في طلبها؛ والا امسكوا.

قال لرياشي: ليس شيء تغيب اذناه، من جميع الحيوان، الا وهو يبيض. وليس شيء تظهر اذناه الا وهو يلد.(١

قالوا: كل شيء يأكل فهو يحرّك فكّه الاسفل؛ ما عدا التمساح، فانه يحرّك فكه الاعلى.

ويلي ذلك بحث واسع في مختلف طبائع الحيوان وصفات البلدان مما قلّت قيمته في عصرنا

---

١) وقد روي هذا المعنى عن احد الاعراب، بكلام اوجز وابلغ، اذ قال: «كل أذُونٍ ولُود، وكل صَمُوخٍ بيوض»

٢٤

كتاب الفريدة الثانية

في الطعام والشراب

اكثر ما في هذا الكتاب وصف الاطعمة والاشربة، وذكر اسمائها عند العرب، وتقسيمها الى حارّ وبارد، ورطب ويابس ومعتدل، وما يتولد عنها من الكيموس الصالح او الفاسد. هذا مع بحث دقيق في ما يحلّ من الخمر وما لا يحلّ، الى غير ذلك مما شهد لابن عبد ربه بالمام واسع في الطب والفقه. غير ان كل هذا فقد قيمته في عصرنا، اذ أصبحنا في درجة من العلم بهذه الامور تفوق مستوى ذلك العصر، ولهذا فلا نذكر منه الا بعض نتف مستملحة:

قالت الحكماء: «أياك وشرب الدواء، ما حملتك الصحة.» وقالوا: «مثل الدواء في البدن، مثل الصابون في الثوب، ينقيه ويخلقه.»

قيل لبقراط: «مالك تقل الاكل؟» قال: «اني انما آكل لاحيا، وغيري يحيا ليأكل!»

من اقوال الحرث بن كلدة، طبيب العرب، لكسرى: «كل حلو حار، وكل حامض بارد، وكل حرّيف حار، وكل مزّ معتدل، وفي المرّ حارّ وبارد.»

•

اجمعت الاطباء ان رأس الادواء ادخال الطعام على الطعام

٢٥

كتاب اللؤلؤة الثانية

في الفكاهات والملح

قال الفقيه ابو عمرو احمد بن محمد بن عبد ربه ، تغمّده الله برحمته : قد مضى قولنا في الطعام والشراب ، وما يتولّد منهما وينسب اليهما . ونحن قائلون ، بعا الفناه في كتابنا هذا ، من الفكاهات والملح ، التي هي نزهة النفس ، وربيع القلب ، ومرتع السمع ، ومجلب الراحة ، ومعدن السرور .

قيل لعمرو بن العاص : «ما الذّ الاشياء ؟» قال : «ليخرج مَن ههنا من الاحداث» فخرجوا ، فقال : «الذّ الاشياء اسقاط المروءة !» وقيل لمسلم بن عبد الملك : «ما الذّ الاشياء ؟» قال : « هتك الحياء واتباع الهوى ! » وهذه المنزلة من اعمال النفس ، واتباع الهوى قبيحة ، كما ان المنزلة الاخرى من الغلوّ في الدين ، والتعسف في الهيبة قبيحة ايضاً . وانما المحمود منها التوسّط وان يكون لهذا موضعه ولهذا موضعه

بنو راسب وبنو طفاوة

اختصم الى زياد بنو راسب وبنو طفاوة في غلام ادّعوه ، واقاموا جميعاً البيّنة عند زياد . فأشكل على زياد امره . فقال سعد الرابية من بني عمرو بن يربوع : «اصلح الله الامير ! قد تبيّن لي في هذا الغلام القضاء ، ولقد شهدت البيّنة لبني راسب وبني طفاوة ، فولّني الحكم بينهما . » قال : «وما

عندك في ذلك ؟» قال : « ارى ان يُلقى في النهر ، فان رسب فهو لبني راسب ، وان طفا فهو للطفاوة . » فاخذ زياد نعليه وقام ، وقد غلبه الضحك . ثم ارسل اليه : « اني انهاك عن المزاح في مجلسي . » قال : « اصلح الله الامير ! حضرني امر خفت ان انساه » فضحك زياد ، وقال : « لا تعودنَّ ! »

من نوادر اشعب

قيل لاشعب : « خففت صلاتك ! » قال : « لانها صلاة لا يخالطها رياء ! »

سأل رجل اشعب ان يُسلفه ، ويؤخره ، فقال : « هاتان حاجتان . فاذا قضيت لك احدهما ، فقد انصفت . » قال الرجل : « رضيت » قال : « فانا اؤخرك ما شئت ، ولا اسلفك »

وقيل له : « ما بلغ من طمعك ؟ » قال : « لم انظر الى اثنين يتسارّان الا حسبت انهما يأمران لي بشيء » (١

وصف حمار

حدث الهيثم بن عدي قال : بينا انا بكناسة الكوفة ، اذا برجل مكفوف البصر ، قد وقف على نخاس ، بسوق الدواب ، فقال له : « ابغ لي حمارًا ليس بالصغير المحتقَر ، ولا بالكبير المشتهر ، اذا خلا له الطريق تدفّق ، واذا كثر الزحام ترفّق ، ان اقللت علفه صبَر ، وان اكثرته شكر ، واذا ركبته هام ، وان ركبه غيري نام . » قال له النخاس : « يا عبد الله ، اصبر . فان مسخ الله القاضي حمارًا ، اصبت حاجتك ، ان شاء الله ! »

---

١) راجع ما ذكر عن اشعب في نوادر الطفيليين (ص : ١٠٦)

فهرس

ص